

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ

مِنْ

أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابن بكين الشنقيطي

إعداد

أ. د. سيد محمد ساد آبي الشنقيطي
أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضية

الرياض - السعودية

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار سيعلمون في ثاني حال من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى؛ أي وفق لطريق الصواب والديمومة على ذلك، وأمر نبيه أن يقول ذلك للكفار، والمعنى سيتضح لكم أنا مهتدون، وأنا على صراط مستقيم، وأنكم على ضلال وباطل. وهذا يظهر لهم يوم القيامة إذا عاينوا الحقيقة، ويظهر لهم في الدنيا لما يرونه من نصر الله لنبيه ﷺ.

وهذا المعنى الذي ذكره هنا بينه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مِنَ الْكَذَابِ الْآيُرُ ۝﴾ [القمر]، وقوله: ﴿وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝﴾ [ص]، إلى غير ذلك من الآيات والصراط في لغة العرب: الطريق الواضح. والسوي: المستقيم، وهو الذي لا اعوجاج فيه؛ ومنه قول جرير:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم

و«من» في قوله: ﴿مِنْ أَصْحَابٍ﴾ قال بعض العلماء: هي موصولة مفعول به لـ «يعلمون». وقال بعضهم: هي استفهامية معلقة لفعل العلم، كما قدمنا إيضاحه في «مريم» والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنبياء

قوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في أول سورة «النحل» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار أخفوا النجوى فيما بينهم، قائلين: إن النبي ﷺ ما هو إلا بشر مثلهم، فكيف يكون رسولا إليهم؟ والنجوى: الإسرار بالكلام وإخفاؤه عن الناس، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة من دعواهم أن بشراً مثلهم لا يمكن أن يكون رسولا، وتكذيب الله لهم في ذلك جاء في آيات كثيرة، وقد قدمنا كثيراً من ذلك كقوله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ۝﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشْرٌ مِثْلُكُمْ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾. . . الآية [التغابن: ٦]، وقوله: ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثْلًا نَبِيًّا وَجَدًا نَبِيًّا إِنَّا إِذَا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ ۝﴾ [القمر] وقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝﴾ [القمر] وَلَكِنْ أَطْعَمَهُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخٰسِرُونَ ۝﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ

آية هي أعظم الآيات وأدلها على الإعجاز. وإنما عبر عن هذا القرآن العظيم بأنه بيته ما في الصحف الأولى؛ لأن القرآن برهان قاطع على صحة جميع الكتب المنزلة من الله تعالى، فهو بيته واضحة على صدقها وصحتها كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ فَاتَوَّأُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية على هذا التفسير الذي هو الأظهر أوضحه - جلّ وعلا - في سورة «العنكبوت» في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [٥١] ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [٥١] [العنكبوت].

فقوله في «العنكبوت»: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ هو معنى قوله في «طه»: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾؛ كما أوضحنا، والعلم عند الله تعالى، ويزيد ذلك إيضاحاً الحديث المتفق عليه: «ما من نبي من الأنبياء إلا أوتي ما آمن البشر على مثله، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». وفي الآية أقوال آخر غير ما ذكرنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ وَنُحْزَىٰ﴾ [١٣٤]. قد قدمنا في سورة «النساء» أن آية «طه» هذه تشير إلى معناها آية «القصص» التي هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٧] [القصص]، وأن تلك الحجة التي يحتجون بها لو لم يأتهم نذير هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرَضُوا﴾.

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للكفار الذين يقترحون عليه الآيات عناداً وتعنتاً: كل منا ومنكم مرتبص، أي منتظر ما يحل بالآخر من الدوائر كالموت والغلبة. وقد أوضح في غير هذا الموضوع أن ما ينتظره النبي ﷺ وأصحابه والمسلمون كله خير، بعكس ما ينتظره ويتربصه الكفار كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَبِصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُفُوقُ مَعْرَماً وَيَتَرَبِّصُ بِكُمْ الدُّوَابِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾... الآية [التوبة: ٩٨]، إلى غير ذلك من الآيات، والتربص: الانتظار.

قوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الضُّرْطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾.

أَطْعَامَ وَيَبْسِي فِي الْأَسْوَابِ ﴿٧﴾ الآية [الفرقان: ٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نُصَدِّقُوا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾... الآية [إبراهيم: ١٠]. والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً، كما تقدم إيضاح ذلك.

وقد رد الله عليهم هذه الدعوى الكاذبة التي هي منع إرسال البشر، كقوله هنا في هذه السورة الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴿٣٨﴾﴾ الآية [الرعد: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا أَطْعَامًا وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقوله هنا: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ حَسَدًا إِلَّا يَأْكُلُونَ أَطْعَامًا وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾، إلى غير ذلك من الآيات، وجملة ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. قيل بدل من ﴿النَّجْوَى﴾؛ أي أسروا النجوى التي هي هذا الحديث الخفي الذي هو قولهم: هل هذا إلا بشر مثلكم. وصدر به الزمخشري، وقيل: مفعول به للنجوى؛ لأنها بمعنى القول الخفي؛ أي قالوا في خفية: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، وقيل: معمول قول محذوف؛ أي قالوا: هل هذا إلا بشر مثلكم، وهو أظهرها؛ لاطراد حذف القول مع بقاء مقوله، وفي قوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أوجه كثيرة من الإعراب معروفة، وأظهرها عندي أنها بدل من الواو في قوله: ﴿وَأَسْرُوا﴾ بدل بعض من كل، وقد تقرر في الأصول أن بدل البعض من الكل من المخصصات المتصلة، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]. فقوله: ﴿مِّنْ﴾ بدل من «الناس» بدل بعض من كل، وهي مخصصة لوجوب الحج بأنه لا يجب إلا على من استطاع إليه سبيلاً، كما قدمنا هذا في سورة «المائدة».

قوله تعالى: ﴿فَأْتَاوَنَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾. إعراب هذه الجملة جار مجرى إعراب الجملة التي قبلها، التي هي ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، والمعنى: أنهم زعموا أن ما جاء به نبينا ﷺ سحر، وبناء على ذلك الزعم الباطل أنكروا على أنفسهم إتيان السحر وهم يبصرون. يعنون بذلك تصديق النبي ﷺ، أي لا يمكن أن نصدقك وتبعلك، ونحن نبصر أن ما جئت به سحر. وقد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أنهم ادعوا أن ما جاء به ﷺ سحر، كقوله عن بعضهم: (إن هذا إلا سحر يؤثر)، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٦١﴾﴾ [الذاريات]. وقد رد الله عليهم دعواهم أن القرآن سحر بقوله هنا: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾؛ يعني أن الذي يعلم القول في السماء والأرض الذي هو السميع العليم، المحيط علمه بكل شيء، هو الذي أنزل هذا القرآن العظيم، وكون من أنزله هو العالم بكل شيء، يدل على كمال صدقه في الأخبار وعدله في الأحكام، وسلامته من جميع العيوب والنقائص، وأنه ليس بسحر. وقد أوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع: كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية

[الفرقان: ٦]، وقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكِ الْمَكِينِ يُشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، إلى غير ذلك من الآيات. وقرأ هذا الحرف حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ بألف بعد القاف وفتح اللام بصيغة الفعل الماضي، وقرأه الباقون «قُلْ» بضم القاف وإسكان اللام بصيغة الأمر.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾. الظاهر أن الإضراب في قوله هنا: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾، إضراب انتقالي لا إبطالي؛ لأنهم قالوا ذلك كله، وقال بعض العلماء: كل هذه الأقوال المختلفة التي حكاها الله عنهم صدرت من طائفة متفقة لا يشبتون على قول، بل تارة يقولون هو ساحر، وتارة شاعر، وهكذا؛ لأن المبطل لا يشبت على قول واحد. وقال بعض أهل العلم: كل واحد من تلك الأقوال قائلته طائفة: كما قدمنا الإشارة إلى هذا في سورة «الحجر» في الكلام على قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وقد رد الله عليهم هذه الدعاوى الباطلة في آيات من كتابه كرده دعواهم أنه شاعر أو كاهن في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا نُؤْمِنُونَ﴾ [٤١] وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ [٤٢] نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ [٤٣] وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ [٤٤] لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ [٤٥] ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ [٤٦] فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ [٤٧] [الحاقة]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ [١٩] لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَبًا وَيَحَقِّقَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ [٢٠]﴾ [يس: ١٩]، وقوله في رد دعواهم أنه افتراه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ [٢٧] أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [٢٨]﴾ [يونس: ٢٧]، وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ [٢٢]﴾ [هود: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، إلى غير ذلك من الآيات، وكقوله في رد دعواهم إنه كاهن أو مجنون: ﴿فَمَا أَنْتَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ [٢٢]﴾ [التكوير: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطَاكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مثنًى وَفَرْدَىٰ ثُمَّ نَنْفِكُوا مَّا بِصَاحِبِكُمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ [٤١]﴾ [سبأ: ٤١]، وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يَمْنُكِرُوا [٦٩]﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَرَّهُوا لِحَقِّ كَرِهُونَ [٧٠]﴾ [المؤمنون: ٧٠]، إلى غير ذلك من الآيات المبينة إبطال كل ما ادعوه في النبي ﷺ والقرآن. وقوله: ﴿أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾ أي أخلاط كالأحلام المختلفة التي يراها النائم ولا حقيقة لها كما قال الشاعر:

أحاديث طسم أو سراب بفدند
ترقق للساوي وأضغاث حالم

وعن اليزيدي: الأضغاث ما لم يكن له تأويل.

قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِينَا رِسَابًا كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾، ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار اقترحوا على نبينا أن يأتيهم بآية كآيات الرسل قبله؛ نحو ناقة صالح، وعصا موسى، وريح سليمان، وإحياء عيسى للأموات وإيرائه الأكمة والأبرص، ونحو ذلك. وإيضاح وجه التشبيه في قوله: ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾؛ هو أنه في معنى: كما أتى الأولون بالآيات؛ لأن إرسال الرسل متضمن للإتيان بالآيات. فقولك: أرسل محمد ﷺ كقولك: أتى محمد ﷺ بالمعجزة. وقد بين تعالى أن الآيات التي اقترحوها لو جاءتهم ما آمنوا، وأنها لو جاءتهم وتمادوا على كفرهم أهلكتهم الله بعداب مستأصل؛ كما أهلك قوم صالح لما عقروا الناقة؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُبْعَثُكُمْ أَنتَهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام]، وأشار إلى ذلك هنا في قوله: ﴿مَا ءَأَمَنْتُمْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾﴾؛ يعني أن الأمم الذين اقترحوا الآيات من قبلهم وجاءتهم رسلهم بما اقترحوا، لم يؤمنوا بل تمادوا، فأهلكهم الله وأنتم أشد منهم عتواً وعناداً؛ فلو جاءكم ما اقترحتم ما آمنتم فهلكتم كما هلكوا. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴿١٧﴾﴾ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات.

وبيّن أنهم جاءتهم آية هي أعظم الآيات، فيستحق من لم يكتف بها التقرير والتوبيخ وذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهٗ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَوْ يَكْفُرْهُمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٥١]، وقد ذكرنا أن هذا المعنى يشير إليه قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْلَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿٣٣﴾﴾ [طه].

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾. بيّن - جلّ وعلا - في هذه الآيات أنه أرسل الرسل إلى الأمم فكذبوهم، وأنه وعد الرسل بأن لهم النصر والعاقبة الحسنة، وأنه صدق رسله ذلك الوعد فأنجاهم، وأنجى معهم ما شاء أن ينجاه. . . والمراد به من آمن بهم من أممهم، وأهلك المسرفين وهم الكفار المكذبون للرسل، وقد أوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة من كتابه كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف]، وقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٣ - ١٤]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ

﴿١٧١﴾ **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧١﴾** وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٢﴾ [الصفات]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٦٦]. وقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٩٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

والظاهر أن «صدق» تتعدى بنفسها وبالحرف، تقول: صدقته الوعد، وصدقته في الوعد؛ كقوله هنا: ﴿ثُمَّ صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَكُمْ اللَّهُ وَعَدَّتْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فقول الزمخشري ﴿صَدَقْتَهُمُ الْوَعْدَ﴾ كقوله: ﴿وَإِخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، لا حاجة إليه، والله أعلم. والإسراف: مجاوزة الحد في المعاصي كالكفر، ولذلك يكثر في القرآن إطلاق المسرفين على الكفار. قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرِيبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾﴾.

«كم» هنا للإخبار بعدد كثير، وهي في محل نصب لأنها مفعول ﴿قَصَمْنَا﴾؛ أي قصمنا كثيراً من القرى التي كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين، وهذا المعنى المذكور هنا جاء مبيناً في مواضع كثيرة في كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧١﴾﴾ [الإسراء]، وقوله: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾... الآية [الحج: ٤٥]، وقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَن أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا ﴿٨﴾﴾ فذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا حُسْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطلاق]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أصل القصم: أفضع الكسر لأنه الكسر الذي يبين تلاؤم الأجزاء، بخلاف الفصم بالفاء فهو كسر لا يبين تلاؤم الأجزاء بالكلية. والمراد بالقصم في الآية: الإهلاك الشديد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبٍ ﴿١١﴾﴾. قد قدمنا الآيات الموضحة لهذا في سورة «الحجر» فأغنى ذلك عن إعادته هنا، وكذلك قوله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ﴾... الآية. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة «بني إسرائيل»، وكذلك الآيات التي بعد هذا قد قدمنا في مواضع متعددة ما يبينها من كتاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿١٧١﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧٢﴾﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار لعنهم الله قالوا عليه أنه اتخذ ولداً، وقد بينا ذلك فيما مضى بياناً شافياً في مواضع متعددة من هذا الكتاب المبارك ﷺ. عما يقول الظالمون علواً كبيراً. وبين هنا بطلان ما ادعوه على ربهم من اتخاذ الأولاد وهم في زعمهم الملائكة بحرف الإضراب الإبطلائي الذي هو ﴿بَلْ﴾ مبيناً أنهم عباده المكرمون، والعبد لا يمكن أن يكون ولداً لسيده. ثم أثنى على ملائكته بأنهم عباد مكرمون، لا يسبقون ربهم بالقول أي لا يقولون إلا ما أمرهم أن يقولوه لشدة طاعتهم له ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

وما أشار إليه في هذه الآية الكريمة من أن الملائكة عبيده وملكه، والعبد لا يمكن أن يكون ولداً لسيده، أشار إليه في غير هذا الموضع كقوله في «البقرة»: ﴿وَقَالُوا أَخَذَ اللَّهُ وِلْدَانًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَمْ يَلِدْهُمَ وَوَلَدَهُمْ وَكَلَّمَهُمْ قَوْلًا مِّنْ لَّدُنْهِ فَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١١٦] وقوله في «النساء»: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ الْوَالِدِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِحُجَّتِ اللَّهِ فَإِنْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ لِيُدْخِلِكُمُ اللَّهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ لَمَّا كُنْتُمْ كَافِرِينَ﴾ [النساء: ١٧١]، أي والمالك بكل شيء لا يمكن أن يكون له ولد؛ لأن الملك ينافي الولدية، ولا يمكن أن يوجد شيء سواه إلا وهو ملك له - جلّ وعلا - .

وما ذكره في هذه الآية الكريمة: من الثناء الحسن على ملائكته - عليهم صلوات الله وسلامه - بينه في غير هذا الموضع؛ كقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنِينًا ۖ يَعْمُرُونَ مَا تَعْلَمُونَ﴾ [الانفطار: ١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۗ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [٢٠] إلى غير ذلك من الآيات .

مسألة: أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة وأمثالها في القرآن أن الأب إذا ملك ابنه عتق عليه بالملك، ووجه ذلك واضح؛ لأن الكفار زعموا أن الملائكة بنات الله؛ فنفى الله تلك الدعوى بأنهم عباده وملكه. فدل ذلك على منافاة الملك للولدية، وأنهما لا يصح اجتماعهما. والعلم عند الله تعالى .

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكِ نَجْرِيهِ جَهَنَّمُ كَذَلِكَ نَجْرِيهِ الظَّالِمِينَ﴾ [١٦]. الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ عائد إلى الملائكة المذكورين في قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ والمعنى أنهم مع كرامتهم على الله لو ادعى أحد منهم أن له الحق في شيء من حقوق الله الخاصة به إليه لكان مشركاً، وكان جزاؤه جهنم. ومعلوم أن التعليق يصح فيما لا يمكن ولا يقع؛ كقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وِلْدٌ...﴾ الآية [الزخرف: ٨١]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾؛ والمراد بذلك تعظيم أمر الشرك. وهذا الفرض والتقدير الذي ذكره - جلّ وعلا - هنا في شأن الملائكة، ذكره أيضاً في شأن الرسل على الجميع - صلوات الله وسلامه - قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٢٥] ولما ذكر - جلّ وعلا - من ذكر من الأنبياء في سورة «الأنعام» في قوله: ﴿وَمِن دُرِّيَّتِي دَاوُدَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، إلى آخر من ذكر منهم، قال بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكِ نَجْرِيهِ جَهَنَّمُ﴾... الآية، دليل قاطع على أن حقوق الله الخالصة له من جميع أنواع العبادة لا يجوز أن يصرف شيء منها لأحد ولو ملكاً مقرباً، أو نبياً مرسلًا. ومما يوضح ذلك

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤَيِّتَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى مخاطباً لسيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكِتَابَ عِتَابًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾. قرأ هذا الحرف عامة السبعة ما عدا ابن كثير ﴿أَوَلَمْ يَرَ﴾ بواو بعد الهمزة، وقرأه ابن كثير «ألم ير الذين كفروا» بدون واو، وكذلك هو في مصحف مكة. والاستفهام لتوبيخ الكفار وتقريعهم، حيث يشاهدون غرائب صنع الله وعجائبه، ومع هذا يعبدون من دونه ما لا ينفع من عبده، ولا يضر من عصاه، ولا يقدر على شيء.

وقوله: ﴿كَانَتْا﴾ التشية باعتبار النوعين اللذين هما نوع السماء، ونوع الأرض كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، ونظيره قول عمر بن شبيب:

الم يحزنك أن جبال قس وتغلب قد تباينتا انقطاعا

والرتق مصدر رتقه رتقاً؛ إذا سده؛ ومنه الرتقاء. وهي التي انسدت فرجها، ولكن المصدر وصف به هنا ولذا أفرده ولم يقل كانتا رتقين. والفتق: الفصل بين الشئيين المتصلين، فهو ضد الرتق. ومنه قول الشاعر:

يهون عليهم إذا يغضبو ن سخط العداة وإرغامها
ورتق الفتوق وفتق الرتو ق ونقض الأمور وإبرامها

واعلم أن العلماء اختلفوا في المراد بالرتق والفتق في هذه الآية على خمسة أقوال، بعضها في غاية السقوط، وواحد منها تدل له قرائن من القرآن العظيم:

الأول: أن معنى: ﴿كَانَتْا رَتْقًا﴾ أي كانت السموات والأرض متلاصقة بعضها مع بعض، ففتقها الله وفصل بين السموات والأرض، ورفع السماء إلى مكانها، وأقر الأرض في مكانها، وفصل بينهما بالهواء الذي بينهما كما ترى.

القول الثاني: أن السموات السبع كانت رتقاً؛ أي متلاصقة بعضها ببعض، ففتقها الله وجعلها سبع سموات، كل اثنتين منها بينهما فصل، والأرضون كذلك كانت رتقاً ففتقها، وجعلها سبعاً بعضها منفصل عن بعض.

القول الثالث: أن معنى: ﴿كَانَتْا رَتْقًا﴾ أن السماء كانت لا ينزل منها مطر، والأرض كانت لا ينبت فيها نبات، ففتق الله السماء بالمطر، والأرض بالنبات.

الرابع: أنهما ﴿كَانَتْا رَتْقًا﴾؛ أي في ظلمة لا يرى من شدتها شيء ففتقها الله بالنور، وهذا القول في الحقيقة يرجع إلى القول الأول، والثاني.

الخامس: وهو أبعدها لظهور سقوطه: أن الرتق يراد به العدم، والفتق يراد به الإيجاد؛ أي كانتا عدماً فأوجدناهما، وهذا القول كما ترى.

فإذا عرفت أقوال أهل العلم في هذه الآية، فاعلم أن القول الثالث منها وهو كونهما كانتا رتقاً بمعنى أن السماء لا ينزل منها مطر، والأرض لا تنبت شيئاً ففتق الله السماء بالمطر والأرض بالنبات، قد دلت عليه قرائن من كتاب الله تعالى:

الأولى: أن قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يدل على أنهم رأوا ذلك؛ لأن الأظهر في «رأى» أنها بصرية، والذي يروونه بأبصارهم هو أن السماء تكون لا ينزل منها مطر، والأرض ميتة هامدة لا نبات فيها؛ فيشاهدون بأبصارهم إنزال الله المطر، وإنباته به أنواع النبات.

القرينة الثانية: أنه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، والظاهر اتصال هذا الكلام بما قبله؛ أي وجعلنا من الماء الذي أنزلناه بفتقنا السماء، وأنبتنا به أنواع النبات بفتقنا الأرض كل شيء حي.

القرينة الثالثة: أن هذا المعنى جاء موضحاً في آيات أخر من كتاب الله كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ [الطارق]؛ لأن المراد بالرجع نزول المطر منها تارة بعد أخرى، والمراد بالصدع: انشقاق الأرض عن النبات. وكقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ [عيس]. واختار هذا القول ابن جرير وابن عطية وغيرهما للقرائن التي ذكرنا. ويؤيد ذلك كثرة ورود الاستدلال بإنزال المطر، وإنبات النبات في القرآن العظيم على كمال قدرة الله تعالى، وعظم منته على خلقه، وقدرته على البعث. والذين قالوا: إن المراد بالرتق والفتق أنهما كانتا متلاصقتين ففتقهما الله وفصل بعضهما عن بعض قالوا في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرِ﴾ أنها من رأى العلمية لا البصرية. وقالوا: وجه تقريرهم بذلك أنه جاء في القرآن، وما جاء في القرآن فهو أمر قطعي لا سبيل للشك فيه، والعلم عند الله تعالى.

وأقرب الأقوال في ذلك هو ما ذكرنا دلالة القرائن القرآنية عليه، وقد قال فيه الفخر الرازي في تفسيره: ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ وذلك لا يليق إلا وللماء تعلق بما تقدم، ولا يكون كذلك إلا إذا كان المراد ما ذكرنا.

فإن قيل: هذا الوجه مرجوح؛ لأن المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا.

قلنا: إنما أطلق عليه لفظ الجمع لأن كل قطعة منها سماء؛ كما يقال ثوب أخلاق، وبرمة أعشار، اه منه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

الظاهر أن «جعل» هنا بمعنى خلق؛ لأنها متعدية لمفعول واحد. ويدل لذلك قوله تعالى في سورة «النور»: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥].

واختلف العلماء في معنى خلق كل شيء من الماء. قال بعض العلماء: الماء الذي خلق منه كل شيء هو النطفة؛ لأن الله خلق جميع الحيوانات التي تولد عن طريق التناسل من النطفة، وعلى هذا فهو من العام المخصوص.

وقال بعض العلماء: هو الماء المعروف؛ لأن الحيوانات إما مخلوقة منه مباشرة كبعض الحيوانات التي تتخلق من الماء، وإما غير مباشرة لأن النطفة من الأغذية والأغذية كلها ناشئة عن الماء، وذلك في الحبوب والثمار ونحوها ظاهر، وكذلك هو في اللحوم والألبان والأسمان ونحوها؛ لأنه كله ناشئ بسبب الماء.

وقال بعض أهل العلم: معنى خلقه كل حيوان من ماء أنه كأنما خلقه عن الماء لفرط احتياجه إليه، وقلة صبره عنه؛ كقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَجٍ﴾ إلى غير ذلك من الأقوال. وقد قدمنا المعاني الأربعة التي تأتي لها لفظة «جعل» وما جاء منها في القرآن وما لم يجيء فيه في سورة «النحل».

وقال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصه: لقائل أن يقول: كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان؟ وقد قال: ﴿وَلَبَّانَ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر]، وجاء في الأخبار: أن الله تعالى خلق الملائكة من النور، وقال تعالى في حق عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ نَخَلْنَا مِنْ الْأَلْبَانِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال في حق آدم عليه السلام: ﴿خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والجواب: اللفظ وإن كان عاماً إلا أن القرينة المخصصة قائمة، فإن الدليل لا بد وأن يكون مشاهداً محسوساً ليكون أقرب إلى المقصود. وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وادم وقصة عيسى عليه السلام؛ لأن الكفار لم يروا شيئاً من ذلك. اهـ منه.

ثم قال الرازي أيضاً: اختلف المفسرون، فقال بعضهم: المراد من قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الحيوان فقط. وقال آخرون: بل يدخل فيه النبات والشجر؛ لأنه من الماء صار نامياً، وصار فيه الرطوبة والخضرة، والنور والثمر. وهذا القول أليق بالمعنى المقصود، كأنه تعالى قال: ففتقنا السماء لإنزال المطر، وجعلنا منه كل شيء في الأرض من النبات وغيره حياً. حجة القول الأول: أن النبات لا يسمى حياً. قلنا: لا نسلم، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠] انتهى منه أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِوْسًا أَنْ نَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل]. قد قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة «النحل» فأعنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ﴾ [النحل]. تضمنت

هذه الآية الكريمة ثلاث مسائل:

الأولى: أن الله - جلّ وعلا - جعل السماء سقفاً؛ أي لأنها للأرض كالسقف للبيت .
الثانية: أنه جعل ذلك السقف محفوظاً .

الثالثة: أن الكفار معرضون عما فيها «أي السماء» من الآيات، لا يتعظون به ولا يتذكرون، وقد أوضح هذه المسائل الثلاث في غير هذا الموضوع .

أما كونه جعلها سقفاً فقد ذكره في سورة «الطور» أنه مرفوع وذلك في قوله: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُنْتُمْ مَسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍ مَّشْهُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور] .

وأما كون ذلك السقف محفوظاً فقد بينه في مواضع من كتابه، فبين أنه محفوظ من السقوط في قوله: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِي﴾ [الروم: ٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]، وقوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَهُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنْ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون]، على قول من قال: وما كنا عن الخلق غافلين؛ إذ لو كنا نغفل لسقطت عليهم السماء فأهلكتهم . وبين أنه محفوظ من التشقق والتفطر، لا يحتاج إلى ترميم ولا إصلاح كسائر السقوف إذا طال زمنها كقوله تعالى: ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمَرَ يُنظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق]، أي ليس فيها من شقوق ولا صدوع . وبين أن ذلك السقف المذكور محفوظ من كل شيطان رجيم كقوله: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر]، وقد بينا الآيات الدالة على حفظها من جميع الشياطين في سورة «الحجر» .

وأما كون الكفار معرضين عما فيها من الآيات فقد بينه في مواضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَكَايُنَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ . . . الآية [القمر: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧]، وقوله: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] .

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدُ أَفَايِنَ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ . قال بعض أهل العلم: كان المشركون ينكرون نبوته ﷺ ويقولون: هو شاعر يتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بني فلان؛ فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى الله دينه بالنصر والحيطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك .

وقال بعض أهل العلم: لما نعي جبريل إلى النبي ﷺ نفسه قال: «فمن لأمتي؟» فنزلت: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدُ﴾؛ والأول أظهر؛ لأن السورة مكية . ومعنى الآية أن الله لم يجعل لبشر قبل نبيه الخلد؛ أي دوام البقاء في الدنيا، بل كلهم يموت .
وقوله: ﴿أَفَايِنَ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ استفهام إنكاري معناه النفي، والمعنى أنك إن مت

فهم لن يخلدوا بعدك، بل سيموتون؛ ولذلك أتبعه بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. وما أشار إليه - جل وعلا - في هذه الآية من أنه ﷺ سيموت، وأنهم سيموتون، وأن الموت ستذوقه كل نفس أوضحه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر]، وكقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [١٦١] وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ [١٧٧] [الرحمن]، وقوله في سورة «آل عمران»: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقوله في سورة «العنكبوت»: ﴿بِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ أَرْضِي وَسِعَةُ فَايَتِي فَاعْبُدُونِ﴾ [٥١] كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا رُجِعُهُمْ [٥٧] [العنكبوت]، وقوله تعالى في سورة «النساء»: ﴿أَيُّنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، إلى غير ذلك من الآيات. وقد قدمنا في سورة «الكهف» استدلال بعض أهل العلم بهذه الآية الكريمة على موت الخضر ﷺ. وقال بعض أهل العلم في قوله: ﴿فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾: هو استفهام حذف أداته؛ أي أفهم الخالدون؟ وقد تقرر في علم النحو أن حذف همزة الاستفهام إذا دل المقام عليها جائز، وهو قياسي عند الأخفش مع «أم» ودونها ذكر الجواب أم لا: فمن أمثله دون «أم» ودون ذكر الجواب قول الكميت:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب

يعني: أو ذو الشيب يلعب. وقول أبي خراش الهذلي واسمه خويلد:

رفوني وقالوا يا خويلد لم ترع فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

يعني: أهم هم على التحقيق. ومن أمثله دون «أم» مع ذكر الجواب قول عمر بن

أبي ربيعة المخزومي:

ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد النجم والحصى والتراب

يعني: أتحبها على الصحيح. وهو مع «أم» كثير جداً، وأنشد له سيبويه قول

الأسود يعفر التيمي:

لعمرك ما أدري وإن كنت دارياً شعيث بن سهم أم شعيث بن منقر

يعني: أشعث بن سهم، ومنه قول ابن أبي ربيعة المخزومي:

بدا لي منها معصم يوم جمرت وكف خضيب زينت ببنان

فو الله ما أدري وإني لحاسب بسبع رميت الجمر أم بثمان

يعني: أبسبع. وقول الأخطل:

كذبتك عينك أم رأيت بواسطة غلس الظلام من الرباب خيالاً

يعني: أكذبتك عينك. كما نص سيبويه في كتابه على جواز ذلك في بيت الأخطل

هذا، وإن خالف في ذلك الخليل قائلاً: إن «كذبتك» صيغة خبرية ليس فيها استفهام محذوف، وإن «أم» بمعنى «بل»؛ ففي البيت على قول الخليل نوع من أنواع البديع

المعنوي يسمى «الرجوع». وقد أوضحنا هذه المسألة وأكثرنا من شواهدا العربية في كتابنا (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة «آل عمران» وذكرنا أن قوله تعالى في آية «الأنبياء» هذه ﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ من أمثلة ذلك، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَايُن مَّتَّ﴾ قرأه نافع وحفص عن عاصم وحمزة والكسائي «مت» بكسر الميم. والباقون بضم الميم. وقد أوضحنا في سورة «مريم» وجه كسر الميم.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَايُن مَّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ يفهم منه أنه لا ينبغي للإنسان أن يفرح بموت أحد لأجل أمر دنيوي يناله بسبب موته؛ لأنه هو ليس مخلداً بعده.

وروي عن الشافعي رحمته الله أنه أنشد هذين البيتين مستشهداً بهما:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى تهياً لأخرى مثلها فكأن قد
ونظير هذا قول الآخر:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

قوله تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. المعنى ونختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا، وبما يجب فيه الشكر من النعم، وإلينا مرجعكم فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر، وقوله ﴿فِتْنَةً﴾ مصدر مؤكد لـ«تبلوكم» من غير لفظه.

وما ذكره - جلّ وعلا -: من أنه يتبلي خلقه أي يختبرهم بالشر والخير قد بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَيَبْلُونَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٤٦) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) ﴿فَلَمَّا سُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (٤٤) ﴿فَقَطَّ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٥) [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (٩٤) ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَآخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (٩٥) [الأعراف]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآيات الكريمة: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾ يدل على أن بلا يبلو تستعمل في الاختبار بالنعم، وبالمصائب والبلايا، وقال بعض العلماء: أكثر ما يستعمل في الشر بلا يبلو، وفي الخير أبلى يبلي. وقد جمع اللغتين في الخير قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْحَيْرِ﴾ قال: أي نبتليكم بالشر والخير فتنه بالشدة والرخاء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، والحلال والحرام، والطاعة والمعصية، والهدى والضلال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ما يتخذونه إلا هزواً، أي مستهزأً به مستخفاً به، والهزؤ: السخرية، فهو مصدر وصف به. ويقولون: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي يعيها وينفي أنها تشفع لكم وتقربكم إلى الله زلفى، ويقول: إنها لا تنفع من عبدها، ولا تضر من لم يعبدها، وهم مع هذا كله كافرون بذكر الرحمن، فالخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم. و«إن» في قوله: ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ نافية. والاستفهام في قوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ قال فيه أبو حيان في البحر: إنه للإنكار والتعجب.

والذي يظهر لي أنهم يريدون بالاستفهام المذكور التحقير بالنبي صلى الله عليه وسلم، كما تدل عليه قرينة قوله: ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾. وقد تقرر في فن المعاني أن من الأغراض التي تؤدي بالاستفهام التحقير. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: إن جواب «إذا» هو القول المحذوف، وتقديره: وإذا رأى الذين كفروا يقولون أهذا الذي يذكر آلهتكم. وقال: إن جملة ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ جملة معترضة بين ﴿إِذَا﴾ وجوابها. واختار أبو حيان في البحر أن جواب «إذا» هو جملة ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ وقال: إن جواب «إذا» بجملة مصدرية ب «إن» أو ما النافيتين لا يحتاج إلى الاقتران بالفاء. وقوله: ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي يعيها. ومن إطلاق الذكر بمعنى العيب قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ ﴿١٦﴾﴾ أي يعيهم. وقول عنترة:

لا تذكرني مهري وما أطعمته فيكون جلدك مثل جلد الأجر
أي لا تعيبي مهري، قاله القرطبي.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة الذكر يكون بخير وبخلافه. فإذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد، كقولك للرجل: سمعت فلاناً يذكرك، فإن كان الذاكر صديقاً فهو ثناء، وإن كان عدواً فذم، ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ انتهى محل الغرض منه. والجملة في قوله: ﴿وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ حالية. وقال بعض أهل العلم: معنى كفرهم بذكر الرحمن هو الموضح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿١٦﴾﴾ [الفرقان]، وقولهم: ما نعرف الرحمن إلا رحمان اليمامة، يعنون مسيلمة الكذاب. وقد بين ابن جرير الطبري وغيره: أن إنكارهم لمعرفة الرحمن تجاهل منهم ومعاودة مع أنهم يعرفون أن الرحمن من أسماء الله تعالى. قال: وقال بعض شعراء الجاهلية الجهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها
وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عجلتم علينا عجلتينا عليكم
وما يشأ الرحمن يعقد ويطلق

وفي هذه الآية الكريمة دلالة واضحة على سخافة عقول الكفار؛ لأنهم عاكفون على ذكر أصنام لا تنفع ولا تضر، ويسوءهم أن تذكر بسوء، أو يقال: إنها لا تشفع ولا تقرب إلى الله، وأما ذكر الله وما يجب أن يذكر به من الوجدانية فهم به كافرون لا يصدقون به، فهم أحق بأن يتخذوا هزواً من النبي ﷺ الذي اتخذوه هزواً، فإنه محق وهم مبطلون.

فإذا عرفت معنى هذه الآية الكريمة فاعلم أن هذا المعنى الذي دلت عليه جاء أيضاً مبيناً في سورة «الفرقان» في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان]، فتحقيرهم لعنهم الله له ﷺ المذكور في قوله في «الأنبياء»: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ هو المذكور في قوله في «الفرقان»: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]. وذكره لآلهتهم بالسوء المذكور في «الأنبياء» في قوله: ﴿يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾؛ هو المذكور في «الفرقان» في قوله: ﴿إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢] أي لما يبين من معائبها، وعدم فائدتها، وعظم ضرر عبادتها.

قوله تعالى: ﴿حُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿١٧﴾﴾. قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يذكر بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول، فإذا علمت ذلك فاعلم أن في قوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مِنْ عَجَلٍ﴾ فيه للعلماء قولان معروفان، وفي نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة أحدهما، أما القول الذي دلت القرينة المذكورة على عدم صحته، فهو قول من قال: العجل الطين وهي لغة حميرية؛ كما قال شاعرهم:

البيع في الصخرة الصماء منبته
والنخل ينبت بين الماء والعجل

يعني: بين الماء والطين. وعلى هذا القول فمعنى الآية خلق الإنسان من طين كقوله تعالى: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]. والقرينة المذكورة الدالة على أن المراد بالعجل في الآية ليس الطين قوله بعده: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٥١﴾، فهذا يدل على أن المراد بالعجل هو العجلة التي هي خلاف التأني والتثبت. والعرب تقول: خلق من كذا. يعنون بذلك المبالغة في الإنصاف؛ كقولهم: خلق فلان من كرم، وخلق فلانة من الجمال. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾

[الروم: ٥٤]، على الأظهر. ويوضح هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء]، أي ومن عجلته دعاءه على نفسه أو ولده بالشر، قال بعض العلماء: كانوا يستعجلون عذاب الله وآياته الملجئة إلى العلم والإقرار، ويقولون متى هذا الوعد فنزل قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ للزجر عن ذلك، كأنه يقول لهم: ليس ببدع منكم أن تستعجلوا؛ فإنكم مجبولون على ذلك، وهو طبعكم وسجيتكم. ثم وعدهم بأنه سيربهم آياته، ونهاهم أن يستعجلوا بقوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾؛ كما قال تعالى: ﴿سَرُّيَهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقال بعض أهل العلم: المراد بالإنسان في قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ آدم، وعن سعيد بن جبير والسدي: لما دخل الروح في عيني آدم نظر في ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة؛ فذلك قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾. وعن مجاهد والكلبي وغيرهما: خلق آدم يوم الجمعة في آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل وطلب تميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس. والظاهر أن هذه الأقوال ونحوها من الإسرائيليات، وأظهر الأقوال أن معنى الآية أن جنس الإنسان من طبعه العجل وعدم التأني كما بينا، والعلم عند الله تعالى.

وقال ابن كثير رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة: والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ها هنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله عليهم، وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم، واستعجلت ذلك، فقال الله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾؛ لأنه تعالى يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، يؤجل ثم يعجل، وينظر ثم لا يؤخر؛ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي نقمي وحكمي، واقتداري على من عصاني فلا تستعجلون. انتهى منه.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُصْرَتُونَ﴾ [٣٩]. جواب ﴿لَوْ﴾ في هذه الآية محذوف، وقد قدمنا أدلة ذلك وشواهد من «العربية» في سورة «البقرة»، وأشرنا إليه في سورة «إبراهيم» وسورة «يوسف». ومعنى الآية الكريمة لو يعلم الكفار الوقت الذي يسألون عنه بقولهم: متى هذا الوعد؟ وهو وقت صعب شديد، تحيط بهم فيه النار من وراء وقدام. فلا يقدر على منعها ودفعها عن أنفسهم، ولا يجدون ناصراً ينصرهم، لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال، ولكن جهلهم بذلك هو الذي هونه عليهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من المعاني جاء مبيناً في مواضع آخر من كتاب الله تعالى.

أما إحاطة النار بهم في ذلك اليوم، فقد جاءت موضحة في آيات متعددة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾... الآية [الأعراف: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ

النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُ فَاذْفُقُونَ ﴿١٦٦﴾ [الزمر]، وقوله تعالى: ﴿سَرَابِيهُم مِّن فِطْرَانٍ وَّعَسَىٰ وَجْهُهُمْ النَّارُ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم]، وقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [المؤمنون]، إلى غير ذلك من الآيات، نرجو الله الكريم العظيم أن يعيدنا منها ومن كل ما قرب إليها من قول وعمل، إنه قريب مجيب. وما تضمنته من كونهم في ذلك اليوم ليس لهم ناصر ولا قوة يدفعون بها عن أنفسهم، جاء مبيناً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمْنَا فَوْقَهُمْ سُلُوفًا مِّن ظُلُمٍ﴾ [الطارق]، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ ﴿٥٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْمِعُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [الصفات]، والآيات في ذلك كثيرة.

وما أشارت إليه هذه الآية من أن الذي هون عليهم ذلك اليوم العظيم حتى استعجلوه واستهزءوا بمن يخوفهم منه إنما هو جهلهم به - جاء مبيناً أيضاً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِفُونَ مِنهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴿١٨﴾﴾ [الشورى]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿لَوْ يَعْلَمُ﴾ قال بعض أهل العلم: هو فعل متعد، والظاهر أنها عرفانية، فهي تتعدى إلى مفعول واحد؛ كما أشار له في الخلاصة بقوله:

لعلم عرفان وظن تهمة تعدية لواحد ملتزمه

وعلى هذا فالمفعول هو قوله: ﴿حِينَ﴾؛ أي لو يعرفون حين وقوع العذاب بهم وما فيه من الفظائع لما استخفوا به واستعجلوه. وعلى هذا فالحين مفعول به لا مفعول فيه؛ لأن العلم الذي هو بمعنى المعرفة واقع على نفس الحين المذكور. وقال بعض أهل العلم: فعل العلم في هذه الآية منزل منزلة اللازم، فليس واقعاً على مفعول. وعليه فالمعنى لو كان لهم علم ولم يكونوا جاهلين لما كانوا مستعجلين. وعلى هذا فالآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٩]، والمعنى لا يستوي من عنده علم ومن لا علم عنده. وقد تقرر في فن المعاني أنه إذا كان الغرض إثبات الفعل لفاعله في الكلام المثبت، أو نفيه عنه في الكلام المنفي مع قطع النظر عن اعتبار تعلق الفعل بمن وقع عليه، فإنه يجري مجرى اللازم، كقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٩]؛ لأنه يراد منه أن من ثبتت له صفة العلم لا يستوي هو ومن انتفت عنه، ولم يعتبر هنا وقوع العلم على معلومات من اتصف بذلك العلم. وعلى هذا القول فقوله: ﴿حِينَ لَا يَكْفُونَ﴾ منصوب بمضمر؛ أي حين لا يكفون عن وجههم النار يعلمون أنهم كانوا على الباطل. والأول هو الأظهر. واستظهر أبو حيان أن مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ محذوف، وأنه هو العامل في الظرف الذي هو ﴿حِينَ﴾، والتقدير: لو يعلم الذين كفروا مجيء الموعود الذي استعجلوه حين لا يكفون لما كفروا واستعجلوا واستهزءوا.

واعلم أنه لا إشكال في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ مع قوله: ﴿فَلَا

سَتَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ فلا يقال: كيف يقول: إن الإنسان خلق من العجل وجبل عليه، ثم ينهاه عما خلق منه وجبل عليه؛ لأنه تكليف بمحال؟! لأننا نقول: نعم، هو جبل على العجل، ولكن في استطاعته أن يلزم نفسه بالتأني، كما أنه جبل على حب الشهوات مع أنه في استطاعته أن يلزم نفسه بالكف عنها كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ﴿٤١﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النازعات].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأُوا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالذِّينِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾، في هذه الآية الكريمة تسلية للنبي ﷺ بأن إخوانه من الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - استهزأ بهم الكفار، كما استهزءوا به ﷺ. يعني فاصبر كما صبروا، ولك العاقبة الحميدة، والنصر النهائي كما كان لهم. وما تضمنته هذه الآية الكريمة من ذلك جاء موضحاً في مواضع من كتاب الله؛ كقوله تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ فُوَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنظَّهُمْ صُرَاطًا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَةٍ أَلَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأُرْسُلَاتِ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأنعام]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤١﴾﴾ [فاطر]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَاقَ بِالذِّينِ﴾ أي أحاط بهم. ومادة حاق يائية العين؛ بدليل قوله في المضارع: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] ولا تستعمل هذه المادة إلا في إحاطة المكروه خاصة؛ فلا تقول: حاق به الخير بمعنى أحاط به. والأظهر في معنى الآية: أن المراد وفاق بهم العذاب الذي كانوا يكذبون به في الدنيا ويستهزئون به، وعلى هذا اقتصر ابن كثير. وقال القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿فَحَاقَ﴾ أي أحاط ودار ﴿بِالذِّينِ﴾ كفروا و﴿سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ وهزءوا بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ أي جزاء استهزائهم. والأول أظهر، والعلم عند الله تعالى، والآية تدل على أن السخرية من الاستهزاء وهو معروف.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ﴾

أمر الله - جلّ وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم: ﴿مَنْ يَكْفُرْكُمْ﴾؛ أي من هو الذي يحفظكم ويحرسكم ﴿بِاللَّيْلِ﴾ في حال نومكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾ في حال تصرفكم في أموركم، والكلاءة بالكسر: الحفظ والحراسة؛ يقال: اذهب في كلاءة الله؛ أي في حفظه، واكتلأت منهم: احترست. ومنه قول ابن هرمة:

إن سلمي والله يكلؤها ضنت بشيء ما كان يرزؤها

وقول كعب بن زهير:

أنخت بعيرى واكتلات بعينه وأمرت نفسي أي أمرى أفعل
 و﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ الرَّحْمَنِ﴾ فيها للعلماء وجهان معروفان:

أحدهما: - وعليه اقتصر ابن كثير: - أن «من» هي التي بمعنى بدل. وعليه فقوله:
 ﴿مِنْ الرَّحْمَنِ﴾ أي بدل الرحمن، يعني غيره. وأنشد ابن كثير لذلك قول الراجز:

جارية لم تلبس المرققا ولم تذق من البقول الفستقا
 أي لم تذق بدل البقول الفستق. وعلى هذا القول فالآية كقوله تعالى: ﴿أَرْضِيْتُمْ
 بِالْحَيَوَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨] أي بدلها. ونظير ذلك من كلام العرب قول
 الشاعر:

أخذوا المخاض من الفصيل غلبة ظلماً ويكتب للأمير أفيلا
 يعني أخذوا في الزكاة المخاض بدل الفصيل.

والوجه الثاني: أن المعنى ﴿مَنْ يَكْلُوَكُمْ﴾ أي يحفظكم ﴿مِنْ الرَّحْمَنِ﴾ أي من
 عذابه وبأسه. وهذا هو الأظهر عندي. ونظيره من القرآن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَصُرْنِي
 مِنَ اللَّهِ إِنَّ عَصِيْبَهُ﴾ [هود: ٦٣]، أي من ينصرني منه فيدفع عني عذابه. والاستفهام في
 قوله تعالى: ﴿مَنْ يَكْلُوَكُمْ﴾ قال أبو حيان في البحر: هو استفهام تقرير وتوبيخ. وهو
 عندي يحتمل الإنكار والتقرير؛ فوجه كونه إنكارياً أن المعنى لا كالى لكم يحفظكم من
 عذاب الله البتة إلا الله تعالى؛ أي فكيف تعبدون غيره. ووجه كونه تقريرياً أنهم إذا قيل
 لهم: من يكلوكم؟ اضطروا إلى أن يقولوا بأن الذي يكلوهم هو الله؛ لأنهم يعلمون أنه
 لا نافع ولا ضار إلا هو تعالى، ولذلك يخلصون له الدعاء عند الشدائد والكروب، ولا
 يدعون معه غيره، كما قدمنا الآيات الموضحة لذلك في سورة «الإسراء» وغيرها. فإذا
 أقرؤا بذلك توجه إليهم التوبيخ والتقرير، كيف يصرفون حقوق الذي يحفظهم بالليل
 والنهار إلى ما لا ينفع ولا يضر.

وهذا المعنى الذي أشارت إليه هذه الآية الكريمة: أنه لا أحد يمنع أحداً من
 عذاب الله، ولا يحفظه ولا يحرسه من الله، وأن الحافظ لكل شيء هو الله وحده جاء
 مبيناً في مواضع آخر كقوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ
 اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، على أظهر التفسيرات، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
 شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً﴾ الآية [الفتح: ١١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي
 يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
 ﴿٧﴾ [الأحزاب]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ
 الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ
 يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا

يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾. قوله في هذه الآية الكريمة: ﴿أَوْ﴾ هي المنقطعة، وهي بمعنى بل والهمزة، فقد اشتملت على معنى الإضراب والإنكار، والمعنى ألهم آلهة تجعلهم في منعة وعز حتى لا ينالهم عذابنا، ثم بين أن آلهتهم التي يزعمون لا تستطيع نفع أنفسهم، فكيف تنفع غيرها بقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾. وقوله: ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ فيه وجهان: أحدهما أنه متعلق ﴿ءَالِهَةً﴾ أي ألهم آلهة ﴿مِنْ دُونِنَا﴾ أي سوانا ﴿تَمَنَعَهُمْ﴾ مما نريد أن نفعله بهم من العذاب! كلا! ليس الأمر كذلك. الوجه الثاني أنه متعلق: «تمنعهم» لقول العرب: منعت دونه، أي كفت أذاه. والأظهر عندي الأول. ونحوه كثير في القرآن كقوله: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ الآية وقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: ٣]، إلى غير ذلك من الآيات.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة، من كون الآلهة التي اتخذوها لا تستطيع نصر أنفسهم فكيف تنفع غيرها، جاء مبيناً في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْتَجِيبُوا سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا نَبْظُرُونَ ﴿١٩٥﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ... الآية [فاطر: ١٣ - ١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾... الآية [الأحقاف: ٥]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن تلك الآلهة المعبودة من دون الله ليس فيها نفع البتة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾؛ أي يجارون؛ أي ليس لتلك الآلهة مجير يجيرهم منا؛ لأن الله يجير ولا يجار عليه كما صرح بذلك في سورة «قد أفلح المؤمنون» في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يُدِينُ بِنُورِ اللَّهِ فَلْيَسْمَعُوا دُعَاءَهُمْ وَلَا يُجَارُوا عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعَامُونَ﴾ [المؤمنون]. والعرب تقول: أنا جار لك وصاحب من فلان؛ أي مجير لك منه. ومنه قول الشاعر:

ينادي بأعلى صوته متعوذاً ليصحب منا والرماح دوني

يعني ليجار ويغاث منا. وأغلب أقوال العلماء في الآية راجعة إلى ما ذكرنا، كقول بعضهم ﴿يُصْحَبُونَ﴾ يمنعون. وقول بعضهم ينصرون. وقول بعضهم: ﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي لا يصحبهم الله بخير، ولا يجعل الرحمة صاحباً لهم، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَنَّاعًا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ .

الظاهر أن الإضراب بـ ﴿بَلْ﴾ في هذه الآية الكريمة انتقالي، والإشارة في قوله ﴿هَؤُلَاءِ﴾، راجعة إلى المخاطبين من قبل في قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ . . . الآية، وهم كفار قريش، ومن اتخذ آلهة من دون الله. والمعنى أنه متع هؤلاء الكفار وآبائهم قبلهم بما رزقهم من نعيم الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة، فحملهم ذلك على الطغيان واللجاج في الكفر.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من أنه تعالى يمهل الكفار ويملي لهم في النعمة، وأن ذلك يزيدهم كفراً وضللاً، جاء موضعاً في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، كقوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِفْسًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٣٧] وَأُمِّلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يُدْعَىٰ لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَنَّاعٌ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ [١٦] وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كٰفِرُونَ﴾ [الفرقان]، والآيات بمثل ذلك كثيرة. والعمر يطلق على مدة العيش.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغٰفِلُونَ﴾ .

في معنى إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها في هذه الآية الكريمة أقوال معروفة للعلماء، وبعضها تدل له قرينة قرآنية:

قال بعض العلماء: نقصها من أطرافها: موت العلماء، وجاء في ذلك حديث مرفوع عن أبي هريرة. وبعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق، ظاهر كما ترى، وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس والثمرات، إلى غير ذلك من الأقوال، وأما القول الذي دلت عليه القرينة القرآنية، فهو أن معنى ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي نقص أرض الكفر ودار الحرب، ونحذف أطرافها بتسليط المسلمين عليها وإظهارهم على أهلها، وردها دار إسلام. والقرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله بعده: ﴿أَفَهُمُ الْغٰفِلُونَ﴾ . والاستفهام لإنكار غلبتهم. وقيل: لتقريرهم بأنهم مغلوبون لا غالبون، فقوله: ﴿أَفَهُمُ الْغٰفِلُونَ﴾ دليل على أن نقص الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمين للكفار، وذلك إنما يحصل بالمعنى المذكور، ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١]، على قول من قال: إن المراد بالقارعة التي تصيبهم سرايا النبي ﷺ تفتح أطراف بلادهم، أو تحل أنت يا نبي الله قريباً من دارهم. وممن يروى عنه هذا

القول: ابن عباس وأبو سعيد وعكرمة ومجاهد وغيرهم. وهذا المعنى الذي ذكر الله هنا ذكره في آخر سورة «الرعد» أيضاً في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد]. وقال ابن كثير رَضِيَ اللهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ «الأنبياء» هذه: إن أحسن ما فسر به قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؛ هو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأحقاف].

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: ما ذكره ابن كثير رَضِيَ اللهُ صَوَابًا، واستقرأ القرآن العظيم يدل عليه. وعليه فالمعنى: أفلا يرى كفار مكة ومن سار سيرهم في تكذيبك يا نبي الله، والكفر بما جئت به ﴿أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]، أي بإهلاك الذين كذبوا الرسل كما أهلكنا قوم صالح وقوم لوط، وهم يمرون بديارهم. وكما أهلكنا قوم هود، وجعلنا سبأً أحاديث ومزقناهم كل ممزق، كل ذلك بسبب تكذيب الرسل، والكفر بما جاءوا به. وهذا هو معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧]، كقوم صالح وقوم لوط وقوم هود وسبأ، فاحذروا من تكذيب نبينا محمد ﷺ؛ لئلا ننزل بكم مثل ما أنزلنا بهم. وهذا الوجه لا ينافي قوله بعده ﴿أَفَهُمْ الْفٰلِقُونَ﴾ والمعنى أن الغلبة لحزب الله القادر على كل شيء، الذي أهلك ما حولكم من القرى بسبب تكذيبهم رسلهم، وأنتم لستم بأقوى منهم، ولا أكثر أموالاً ولا أولاداً كما قال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ [الدخان: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آغَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [غافر]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، إلى غير ذلك من الآيات.

وإنذار الذين كذبوه ﷺ بما وقع لمن كذب من قبله من الرسل كثير جداً في القرآن. وبه تعلم اتجاه ما استحسنته ابن كثير رَضِيَ اللهُ من تفسير آية «الأنبياء» هذه بآية «الأحقاف» المذكورة كما بينا.

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: فإن قلت: أي فائدة في قوله: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾؟ قلت: فيه تصوير ما كان الله يجريه على أيدي المسلمين، وأن عساكرهم وسرايهم كانت تغزو أرض المشركين، وتأتيها غالبية عليها ناقصة من أطرافها. (اهد منه)، والله - جل وعلا - أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يضع الموازين القسط ليوم القيامة؛

فتوزن أعمالهم وزناً في غاية العدالة والإنصاف: فلا يظلم الله أحداً شيئاً، وأن عمله من الخير أو الشر، وإن كان في غاية القلّة والدقة كتمثال حبة من خردل، فإن الله يأتي به؛ لأنه لا يخفى عليه شيء، وكفى به - جلّ وعلا - حاسباً؛ لإحاطة علمه بكل شيء.

وبين في غير هذا الموضع أن الموازين عند ذلك الوزن منها ما يخف، ومنها ما يثقل، وأن من خفت موازينه هلك، ومن ثقلت موازينه نجا كقوله تعالى: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴿١٥١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأَمَّهُ هَكَايَةً ﴿٩﴾﴾ [الفارعة] إلى غير ذلك من الآيات.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن موازين يوم القيامة موازين قسط، ذكره في «الأعراف» في قوله: ﴿وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ [الأعراف: ٨]؛ لأن الحق عدل وقسط. وما ذكره فيها: من أنه لا تظلم نفس شيئاً بينه في مواضع أخر كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفَهَا وَبُؤْتٍ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقد قدمنا الآيات الدالة على هذا في سورة «الكهف».

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من كون العمل وإن كان مثقال ذرة من خير أو شر أتى به - جلّ وعلا - أوضحه في غير هذا الموضع كقوله عن لقمان مقررأ له: ﴿يَبْنِيْ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [لقمان]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٧٨﴾﴾ [الزلزلة] إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ﴾ جمع ميزان، وظاهر القرآن تعدد الموازين لكل شخص، لقوله: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٨]، وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ [الأعراف: ٩]، فظاهر القرآن يدل على أن للعامل الواحد موازين يوزن بكل واحد منها صنف من أعماله، كما قال الشاعر:

ملك تقوم الحوادث لعدله
فلكل حادثة لها ميزان

والقاعدة المقررة في الأصول أن ظاهر القرآن لا يجوز العدول عنه إلا بدليل يجب الرجوع إليه. وقال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه. وقد قدمنا في آخر سورة «الكهف» كلام العلماء في كيفية وزن الأعمال، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله في هذه الآية: ﴿الْقِسْطُ﴾ أي العدل، وهو مصدر وصف به؛ ولذا لزم إفراده، كما قال في الخلاصة:

ونعتوا بمصدر كثيراً فالتزموا الإفراد والتذكير
كما قدمنا مراراً، ومعلوم أن النعت بالمصدر يقول فيه بعض العلماء: إنه للمبالغة. وبعضهم يقول: هو بنية المضاف المحذوف، فعلى الأول كأنه بالغ في عدالة الموازين حتى سماها القسط الذي هو العدل. وعلى الثاني فالمعنى: الموازين ذوات القسط.

واللام في قوله: ﴿يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ فيها أوجه معروفة عند العلماء:
منها: أنها للتوقيت، أي الدلالة على الوقت، كقول العرب: جئت لخمس ليال بقين من الشهر، ومنه قول نابغة ذبيان:

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع
ومنها: أنها لام كي، أي نضع الموازين القسط لأجل يوم القيامة، أي لحساب الناس فيه حساباً في غاية العدالة والإنصاف.

ومنها: أنها بمعنى في، أي نضع الموازين القسط في يوم القيامة.
والكوفيون يقولون: إن اللام تأتي بمعنى في، ويقولون: إن من ذلك قوله تعالى: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي في يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوفُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ أي في وقتها. ووافقهم في ذلك ابن قتيبة من المتقدمين، وابن مالك من المتأخرين، وأنشد مستشهداً لذلك قول مسكين الدارمي:

أولئك قومي قد مضوا لسبيلهم كما قد مضى من قبل عاد وتبع
يعني مضوا في سبيلهم. وقول الآخر:

وكل أب وابن وإن عمراً معاً مقيمين مفقود لوقت وفاقد
أي في وقت.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾ يجوز أن يكون ﴿شَيْئاً﴾ هو المفعول الثاني لـ ﴿تُظْلَمُ﴾ ويجوز أن يكون ما ناب عن المطلق؛ أي شيئاً من الظلم لا قليلاً ولا كثيراً. ومثقال الشيء: وزنه. والخردل: حب في غاية الصغر والدقة. وبعض أهل العلم يقول: هو زريعة الجرجير. وأنت الضمير في قوله: ﴿بِهَا﴾ وهو راجع إلى المضاف الذي هو ﴿مِثْقَالٌ﴾ وهو مذكر لاكتسابه التأنيث من المضاف إليه الذي هو: ﴿حَبَّةٌ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ على حد قوله في الخلاصة:

وربما أكسب ثان أولاً تأنيثاً إن كان لحذف مؤهلاً

ونظير ذلك من كلام العرب قول عنترة في معلقته:

جاد عليه كل عين ثرة
وقول الراجز:
طول الليالي أسرع في نقضي
وقول الأعشى:
وتشرق بالقول الذي قد أذعته
وقول الآخر:

مشين كما اهتزت رماح تسفحت
أعاليها مر الرياح النواسم
فقد أنث في البيت الأول لفظة «كل» لإضافتها إلى «عين»، وأنث في البيت الثاني لفظة «طول» لإضافتها إلى «الليالي» وأنث في البيت الثالث «الصدر» لإضافته إلى «القناة» وأنث في البيت الرابع «مر» لإضافته إلى «الرياح». والمضافات المذكورة لو حذفت لبقى الكلام مستقيماً، كما قال في الخلاصة:

إِنْ كَانَ لِحَذْفِ مَوْهَلَا

وقرأ هذا الحرف عامة القراء ما عدا نافعاً ﴿وَإِنْ كَانَ مَثْقَالٌ حَبَّةٌ﴾ بنصب ﴿مَثْقَالٌ﴾ على أنه خبر ﴿كَانَ﴾ أي وإن كان العمل الذي يراد وزنه مثقال حبة من خردل. وقرأ نافع وحده (وإن كان مثقالاً) بالرفع فاعل ﴿كَانَ﴾ على أنها تامة كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾... الآية [البقرة: ٢٨٠].

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (٥٠). ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ أي كثير البركات والخيرات؛ لأنه فيه خير الدنيا والآخرة، ثم وبخ من ينكرونه منكرأ عليهم بقوله: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾. وما ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أن هذا القرآن مبارك بينه في مواضع متعددة من كتابه كقوله تعالى في «الأنعام»: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (١٥٠)، وقوله فيها أيضاً: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]؛ وقوله تعالى في «ص»: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٢١)، إلى غير ذلك من الآيات، فمرجو الله تعالى القريب المجيب أن تغمرنا بركات هذا الكتاب العظيم المبارك بتوفيق الله تعالى لنا لتدبر آياته، والعمل بما فيها من الحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والمكارم والآداب: امتثالاً واجتناباً، إنه قريب مجيب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى قوله ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٧٧).
قد قدمنا ما يوضح هذه الآيات إلى آخر القصة من القرآن في سورة «مريم»، فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٦٨). ذكر - جل وعلا -

في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما أفحم قومه الكفرة بالبراهين والحجج القاطعة، لجأوا إلى استعمال القوة فقالوا: ﴿حَرْقُوهُ وَأَنْصُرُوا إِلَهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ أي بقتلكم عدوها إبراهيم شر قتلة، وهي الإحراق بالنار.

ولم يذكر هنا أنهم أرادوا قتله بغير التحريق، ولكنه تعالى ذكر في سورة «العنكبوت» أنهم ﴿قَالُوا أَفَتُلَوُّهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾، وذلك في قوله: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفَتُلَوُّهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾... الآية [العنكبوت: ٢٤].

وقد جرت العادة بأن المبطل إذا أفحم بالدليل لجأ إلى ما عنده من القوة ليستعملها ضد الحق.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصراً مؤزراً. فاختاروا له أفضح قتلة، وهي الإحراق بالنار. وإلا فقد فرطتم في نصرها.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾. في الكلام حذف دل المقام عليه، وتقديره: قالوا حرقوه فرموه في النار، فلما فعلوا ذلك قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً، وقد بين في «الصفات» أنهم لما أرادوا أن يلقوه في النار بنوا له بنياناً ليلقوه فيه.

وفي القصة أنهم ألقوه من ذلك البنيان العالي بالمنجنيق بإشارة رجل من أعراب فارس (يعنون الأكراد)، وأن الله خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَبْنَاؤُا لِمِ بَيْنَنَا فَالْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٦٧﴾﴾ [الصفات: ٩٧]. والمفسرون يذكرون من شدة هذه النار وارتفاع لهبها، وكثرة حطبها شيئاً عظيماً هائلاً. وذكروا عن نبي الله إبراهيم أنهم لما كتفوه مجرداً ورموه إلى النار، قال له جبريل: هل لك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما الله ف نعم! قال: لم لا تسأله؟ قال: علمه بحالي كاف عن سؤالي.

وما ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه أمر النار بأمره الكوني القدري أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، يدل على أنه أنجاه من تلك النار؛ لأن قوله تعالى: ﴿كُونِي بَرْدًا﴾ يدل على سلامته من حرها، وقوله: ﴿وَسَلَامًا﴾ يدل على سلامته من شر بردها الذي انقلبت الحرارة إليه. وإنجاؤه إياه منها الذي دل عليه أمره الكوني القدري هنا جاء مصرحاً به في «العنكبوت» في قوله تعالى: ﴿فَأَجْنَحَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤] وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُ رُحْمًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾... الآية.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ يوضحه ما قبله، فالكيد الذي أرادوه به؛ إحراقه بالنار نصراً منهم لآلهتهم في زعمهم، وجعله تعالى إياهم الأخسرين؛ أي الذين هم أكثر خسراناً لبطلان كيدهم وسلامته من نارهم.

وقد أشار تعالى إلى ذلك أيضاً في سورة «الصفات» في قوله: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الصفات]، وكونهم الأسفلين واضح لعلوه عليهم وسلامته من

شرهم، وكونهم الأخسرين؛ لأنهم خسروا الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. وفي القصة أن الله سلط عليهم خلقاً من أضعف خلقه فأهلكهم وهو البعوض. وفيها أيضاً أن كل الدواب تطفئ عن إبراهيم النار، إلا الوزغ فإنه ينفخ النار عليه.

وقد قدمنا الأحاديث الواردة بالأمر بقتل الأوزاغ في سورة «الأنعام». وعن أبي العالية: لو لم يقل الله ﴿سَلَّمْنَا﴾ [هود: ٦٩]، لكان بردها أشد عليه من حرها، ولو لم يقل ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ لكان بردها باقياً إلى الأبد. وعن علي وابن عباس رضي الله عنهما لو لم يقل ﴿وَسَلَّمْنَا﴾ لمات إبراهيم من بردها. وعن السدي: لم تبق في ذلك اليوم نار إلا طفئت. وعن كعب وقتادة: لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه. وعن المنهال بن عمرو: قال إبراهيم ما كنت أياماً قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار. وعن شعيب الحماني: أنه ألقى في النار وهو ابن ست عشر سنة. وعن ابن جريج: ألقى فيها وهو ابن ست وعشرين. وعن الكلبي: بردت نيران الأرض جميعاً، فما أضجعت ذلك اليوم كراعاً. وذكروا في القصة أن نمرود أشرف على النار من الصرح فرأى إبراهيم جالساً على السرير يؤنسه ملك الظل، فقال: نعم الرب ربك، لأقربن له أربعة آلاف بقرة، وكف عنه. وكل هذا من الإسرائيليات. والمفسرون يذكرون كثيراً منها في هذه القصة وغيرها من قصص الأنبياء.

وقال البخاري في صحيحه: حدثنا أحمد بن يونس، أراه قال: حدثنا أبو بكر عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم رضي الله عنه حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. حدثنا مالك بن إسماعيل، حدثنا إسرائيل عن أبي حصين عن أبي الضحى عن ابن عباس قال: كان آخر قول إبراهيم حين ألقى في النار: «حسبي الله ونعم الوكيل»، انتهى.

قوله تعالى: ﴿وَجَنَيْنَهُ وَطُورًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، الضمير في قوله: ﴿وَجَنَيْنَهُ﴾ عائد إلى إبراهيم، قال أبو حيان في البحر المحيط: وضمن قوله: ﴿وَجَنَيْنَهُ﴾ معنى أخرجناه بنجاتنا إلى الأرض؛ ولذلك تعدى «نجيناه» بإلى، ويحتمل أن يكون ﴿إِلَى﴾ متعلقاً بمحذوف؛ أي منتهياً إلى الأرض، فيكون في موضع الحال. ولا تضمين في ﴿وَجَنَيْنَهُ﴾ على هذا، والأرض التي خرجنا منها هي كوثى من أرض العراق، والأرض التي خرجنا إليها: هي أرض الشام، اه منه. وهذه الآية الكريمة تشير إلى هجرة إبراهيم ومعه لوط من أرض العراق إلى الشام فراراً بدينهما.

وقد أشار تعالى إلى ذلك في غير هذا الموضع كقوله في «العنكبوت»: ﴿فَأَمَّن لَّمْ يُؤْتِ الْوَيْحَ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ الآية [العنكبوت: ٢٦]، وقوله في «الصافات»: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات]، على أظهر القولين؛ لأنه فار إلى ربه بدينه من

الكفار. وقال القرطبي رحمته الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ (٩٩): هذه الآية أصل في الهجرة والعزلة، وأول من فعل ذلك إبراهيم عليه السلام، وذلك حين خلصه الله من النار قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾، أي مهاجر من بلد قومي ومولدي، إلى حيث أتمكن من عبادة ربي ﴿فَإِنَّهُ سَيِّدِينَ﴾، فيما نويت إلى الصواب. وما أشار إليه - جلّ وعلا - من أنه بارك للعالمين في الأرض المذكورة، التي هي الشام على قول الجمهور في هذه الآية بقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾؛ بينه في غير الموضوع كقوله: ﴿وَلَسَلِمْنَ مِنَ الرِّيحِ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]. ومعنى كونه (بارك فيها)؛ هو ما جعل فيها من الخصب والأشجار والأنهار والثمار كما قال تعالى: ﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]؛ ومن ذلك أنه بعث أكثر الأنبياء منها.

وقال بعض أهل العلم: ومن ذلك أن كل ماء عذب أصل منبعه من تحت الصخرة التي عند بيت المقدس، وجاء في ذلك حديث مرفوع، والظاهر أنه لا يصح. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ أقوال آخر تركناها لضعفها في نظرنا.

وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن الفرار بالدين من دار الكفر إلى بلد يتمكن فيه الفار بدينه من إقامة دينه واجب، وهذا النوع من الهجرة وجوبه باق بلا خلاف بين العلماء في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ (٧٦).

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه وهب لإبراهيم ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وأنه جعل الجميع صالحين، وقد أوضح البشارة بهما في غير هذا الموضوع، كقوله تعالى: ﴿وَأَمْرًا أَنَّهُ قَائِمَةٌ فَضَحَكْتُ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود]، وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات]. وقد أشار تعالى في سورة «مريم» إلى أنه لما هجر الوطن والأقارب عوضه الله من ذلك قرة العين بالذرية الصالحة، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا أَعْتَرَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿نَافِلَةً﴾ قال فيه ابن كثير: قال عطاء ومجاهد: نافلة عطية. وقال ابن عباس وقتادة والحكم بن عتيبة: النافلة: ولد الولد، يعني أن يعقوب ولد إسحاق.

قال مقيد - عفا الله عنه وغفر له -: أصل النافلة في اللغة: الزيادة على الأصل، ومنه النوافل في العبادات؛ لأنها زيادات على الأصل الذي هو الفرض، وولد الولد زيادة على الأصل، الذي هو ولد الصلب، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي:

فإن تك أنثى من معد كريمة علينا فقد أعطيت نافلة الفضل

أي أعطيت الفضل عليها والزيادة في الكرامة علينا، كما هو التحقيق في معنى بيت أبي ذؤيب هذا، وكما شرحه به أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري في شرحه لأشعار الهذليين، وبه تعلم أن إيراد صاحب اللسان بيت أبي ذؤيب المذكور مستشهداً به؛ لأن النافلة العنيفة غير صواب، بل هو غلط، مع أن الأنفال التي هي الغنائم راجعة في المعنى إلى معنى الزيادة؛ لأنها زيادة تكريم أكرم الله بها هذا النبي الكريم فأحلها له ولأمته، أو لأن الأموال المغنومة أموال أخذوها زيادة على أموالهم الأصلية بلا ثمن.

وقوله: ﴿ نَافِلَةٌ ﴾ فيه وجهان من الإعراب، فعلى قول من قال: النافلة العطية، فهو ما ناب عن المطلق من «وهبنا» أي وهبنا له إسحاق ويعقوب هبة، وعليه فالنافلة مصدر جاء بصيغة اسم الفاعل كالعاقبة والعافية. وعلى أن النافلة بمعنى الزيادة فهو حال من «يعقوب»؛ أي وهبنا له يعقوب في حال كونه زيادة على إسحاق.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدٌ ﴾ (٧٣). الضمير في قوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ ﴾ يشمل كل المذكورين: إبراهيم، ولوطاً وإسحاق، ويعقوب، كما جزم به أبو حيان في البحر المحيط، وهو الظاهر.

وقد دلت هذه الآية الكريمة على أن الله جعل إسحاق ويعقوب من الأئمة، أي جعلهم رؤساء في الدين يقتدى بهم في الخيرات وأعمال الطاعات، وقوله: ﴿ بِأَمْرِنَا ﴾ أي بما أنزلنا عليهم من الوحي والأمر والنهي، أو يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم، بإرشاد الخلق ودعائهم إلى التوحيد.

وهذه الآية الكريمة تبين أن طلب إبراهيم الإمامة لذريته المذكور في سورة «البقرة» أجابه الله فيه بالنسبة إلى بعض ذريته دون بعضها، وضابط ذلك أن الظالمين من ذريته لا ينالون الإمامة بخلاف غيرهم؛ كإسحاق ويعقوب فإنهم ينالونها كما صرح به تعالى في قوله هنا: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً ﴾، وطلب إبراهيم هو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْهِمْ رُبُّهُمُ بَكِلَيْتَ فَاَتَمَّتْ قَوْلَهُمْ قَالِ إِنَّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالِ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فقوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي واجعل من ذريتي أئمة يقتدى بهم في الخير فأجابه الله بقوله: ﴿ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي لا ينال الظالمين عهدي بالإمامة؛ على الأصوب، ومفهوم قوله: ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أن غيرهم يناله عهده بالإمامة، كما صرح به هنا. وهذا التفصيل المذكور في ذرية إبراهيم أشار له تعالى في «الصفات» بقوله: ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصفات: ١١٣]، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾؛ أي أن يفعلوا الطاعات، ويأمروا الناس بفعلها، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة من جملة

الخيرات، فهو من عطف الخاص على العام، وقد قدمنا مراراً النكتة البلاغية المسوغة للإطناب في عطف الخاص على العام، وعكسه في القرآن، فأغنى ذلك عن إعادته هنا. وقوله: ﴿وَكَاذِبًا لَنَا عَبِيدِينَ﴾؛ أي مطيعين باجتناب النواهي وامتنال الأوامر بإخلاص؛ فهم يفعلون ما يأمرون الناس به، ويجتنبون ما ينهاهم عنه كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ﴾... الآية [هود: ٨٨]. وقوله: ﴿أَيُّمَةً﴾ معلوم أنه جمع إمام، والإمام: هو المقتدى به، ويطلق في الخير كما هنا، وفي الشر كما في قوله: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْفُرُونَ إِلَىٰ الْكَاذِبِ﴾... الآية [القصص: ٤١]، وما ظنه الزمخشري من الإشكال في هذه الآية ليس بواقع، كما نبه عليه أبو حيان. والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ لم تعوض هنا تاء عن العين الساقطة بالاعتلال على القاعدة التصريفية المشهورة؛ لأن عدم تعويضها عنه جائز كما هنا، كما أشار إلى ذلك في الخلاصة بقوله:

وَأَلْفُ الْإِفْعَالِ وَاسْتَفْعَالِ

أزل لذا الإعلال والتاء الزم عوض وحذفها بالنقل ربما عرض وقد أشار في أبنية المصادر إلى أن تعويض التاء المذكورة من العين هو الغالب بقوله: واستعد استعادة ثم أقم إقامة وغالباً ذا التاء لم وما ذكرناه من أن التاء المذكورة عوض عن العين أجود من قول من قال: إن العين باقية وهي الألف الباقية، وأن التاء عوض عن ألف الإفعال.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا ءَايَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَوَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقُرْبَىٰ أَلَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْتِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله ﴿وَلَوْطًا﴾ منصوب بفعل مضمر وجوباً يفسره آتيانه، كما قال في الخلاصة:

فالساق انصبه بفعل أضمر حتماً موافق لما قد أظهر

قال القرطبي في تفسير هذه الآية: الحكم: النبوة. والعلم: المعرفة بأمر الدين، وما يقع به الحكم بين الخصوم. وقيل: علماً: فهماً، وقال الزمخشري: حكماً: حكمة، وهو ما يجب فعله، أو فصلاً بين الخصوم. وقيل: هو النبوة.

قال مقيد - عفا الله عنه -: أصل الحكم في اللغة: المنع كما هو معروف، فمعنى الآيات أن الله آتاه من النبوة والعلم ما يمنع أقواله وأفعاله من أن يعترها الخلل. والقرية التي كانت تعمل الخبائث: هي سدوم وأعمالها، والخبائث التي كانت تعملها جاءت موضحة في آيات من كتاب الله: منها: اللواط، وأنهم هم أول من فعله من الناس، كما قال تعالى: ﴿آتَاؤُنَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال:

﴿آتَاوُنَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٧٦﴾ وَتَدْرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]. ومن الخبائث المذكورة إتيانهم المنكر في ناديهم، وقطعهم الطريق، كما قال تعالى: ﴿أَيُّكُمْ لَأَتَاوُنَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]. ومن أعظم خبائثهم: تكذيب نبي الله لوط وتهديدهم له بالإخراج من الوطن كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالُوا لَيْنَ لِمُ نَنْتَه يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْأَسُ يَنْظَهُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل]، إلى غير ذلك من الآيات، وقد بين الله في مواضع متعددة من كتابه أنه أهلكتهم فقلب بهم بلدهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَابِقَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: ٨٢] والآيات بنحو ذلك كثيرة. والخبائث: جمع خبيثة، وهي الفعلة السيئة كالكفر واللواط وما جرى مجرى ذلك.

وقوله: ﴿قَوْمَ سَوَاءٍ﴾ أي أصحاب عمل سيئ، ولهم عند الله جزاء يسوءهم: وقوله: ﴿فَاسْقِيَنَّ﴾ أي خارجين عن طاعة الله، وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُ﴾ يعني لوطاً: ﴿فِي رَحْمَتِنَا﴾ شامل لنجاته من عذابهم الذي أصابهم، وشامل لإدخاله إياه في رحمته التي هي الجنة، كما في الحديث الصحيح: «تحتجت النار والجنة». الحديث، وفيه: «فقال للجنة: أنت رحمتي أرحم بها من أشياء من عبادي».

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلٍ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَنُوحًا﴾ منصوب بـ«اذكر» مقدرًا، أي واذكر نوحاً حين نادى من قبل، أي من قبل إبراهيم ومن ذكر معه. ونداء نوح هذا المذكور هنا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمْ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصفات] وقد أوضح الله هذا النداء بقوله: ﴿وَقَالَ نُوْحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْتَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاِجْرًا كَفَّارًا ﴿٣٧﴾﴾ [نوح]، وقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٤١﴾﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوْبٌ فَأُنْصِرْ ﴿٤٢﴾﴾ فَفَنَحَا أَبُوْبَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْمِرٍ ﴿٤٣﴾﴾ [القمر]. والمراد بالكرب العظيم في الآية: الغرق بالطوفان الذي تتلاطم أمواجه كأنها الجبال العظام، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِيْنَةِ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ١٥]، إلى غير ذلك من الآيات، والكرب: هو أقصى الغم، والأخذ بالنفس.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ يعني إلا من سبق عليه القول من أهله بالهلاك مع الكفرة الهالكين، كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا اجْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ... الآية [هود: ٤٠]. ومن سبق عليه القول منهم ابنه المذكور في قوله: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود: ٤٣]، وامرأته

المذكورة في قوله: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا أَمْرَاتٌ نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (٧٨) ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ﴾ منصوب بـ«اذكر» مقدرًا. وقيل: معطوف على قوله: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ أي واذكر نوحًا إذ نادى من قبل: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾... الآية، وقوله: ﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ بدل اشتمال كما أوضحناه في سورة «مریم» وذكرنا بعض المناقشة فيه، وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يقول بعض العلماء في الآية قولاً ويكون في نفس الآية قرينة تدل على خلاف ذلك القول. وذكرنا في هذا الكتاب مسائل كثيرة من ذلك، فإذا علمت ذلك فاعلم أن جماعة من العلماء قالوا: إن حكم داوود وسليمان في الحرث المذكور في هذه الآية كان بوحى: إلا أن ما أوحى إلى سليمان كان ناسخاً لما أوحى إلى داوود.

وفي الآية قرينتان على أن حكمهما كان باجتهاد لا بوحى، وأن سليمان أصاب فاستحق الثناء باجتهاده، وإصابته، وأن داوود لم يصب فاستحق الثناء باجتهاده ولم يستوجب لوماً ولا ذمًا بعدم إصابته؛ كما أثنى على سليمان بالإصابة في قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾، وأثنى عليهما في قوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ فدل قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ على أنهما حكما فيها معاً، كل منهما بحكم مخالف لحكم الآخر، ولو كان حياً لما ساغ الخلاف. ثم قال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فدل ذلك على أنه لم يفهمها داوود، ولو كان حكمه فيها بوحى لكان مفهماً إياها كما ترى. فقوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ﴾ مع قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ قرينة على أن الحكم لم يكن بوحى بل باجتهاد، وأصاب فيه سليمان دون داوود بتفهم الله إياه ذلك.

والقرينة الثانية: هي أن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾... الآية، يدل على أنه فهمه إياها من نصوص ما كان عندهم من الشرع؛ لا أنه أنزل عليه فيها وحياً جديداً ناسخاً؛ لأن قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أليق بالأول من الثاني، كما ترى. وهناك مسائل عديدة تتعلق بالآية يُرجع من أراد الوقوف عليها إلى الأصل.

وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا﴾ أي القضية أو الحكومة المفهومة من قوله: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ وقوله: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا﴾ أي أعطينا كلا من داوود وسليمان حكماً وعلماً، والتنوين في قوله: ﴿وَكُلًّا﴾ عوض عن كلمة أي كل واحد منهما.

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سخر الجبال أي ذللها، وسخر الطير تسبح مع داوود. وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من تسخير الطير، والجبال تسبح مع

نبية داوود بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أُوَيْمَ مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]. وقوله: ﴿أُوَيْمَ مَعَهُ﴾ أي رجعي معه التسبيح. ﴿وَالطَّيْرَ﴾ أي ونادينا الطير بمثل ذلك من ترجيع التسبيح معه، وقول من قال: ﴿أُوَيْمَ مَعَهُ﴾ أي سيرى معه، وأن التأويب سير النهار ساقط كما ترى. وكقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿٧٧﴾ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُتْبِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿٧٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿٧٩﴾ [ص].

والتحقيق أن تسبيح الجبال والطير مع داوود المذكور تسبيح حقيقي؛ لأن الله - جلّ وعلا - يجعل لها إدراكات تسبح بها، يعلمها هو - جلّ وعلا - ونحن لا نعلمها كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْجِبَارَةِ لِمَا يُنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَسْقُوقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ حَشِيئَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وقد ثبت في صحيح البخاري أن الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ لما انتقل عنه بالخطبة إلى المنبر سمع له حين، وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبي قال: «إني لأعرف حجراً كان يسلم علي في مكة» وأمثال هذا كثيرة، والقاعدة المقررة عند العلماء أن نصوص الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن ظاهرها المتبادر منها إلا بدليل يجب الرجوع إليه، والتسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء، وفي اصطلاح الشرع: تنزيه الله - جلّ وعلا - عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله.

وقال القرطبي في تفسير هذه الآية: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾؛ أي جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح. والظاهر أن قوله: ﴿وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ مؤكّد لقوله: ﴿وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾؛ والموجب لهذا التأكيد أن تسخير الجبال وتسخيرها أمر عجب خارق للعادة، مظنة لأن يكذب به الكفرة الجهلة.

وقال الزمخشري: ﴿وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾؛ أي قادرين على أن نفعل هذا، وقيل: كنا نفعل بالأنبياء مثل ذلك. وكلا القولين اللذين قال ظاهر السقوط؛ لأن تأويل ﴿وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾ بمعنى كنا قادرين؛ بعيد، ولا دليل عليه كما لا دليل على الآخر كما ترى. وقال أبو حيان: ﴿وَكُنَّا فاعِلِينَ﴾؛ أي فاعلين هذه الأعاجيب من تسخير الجبال وتسخيرهن، والطير لمن نخصه بكرامتنا، اه، وأظهرها عندي هو ما تقدم، والعلم عند الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِنُحِصِّنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ﴿٨٠﴾. الضمير في قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ راجع إلى داوود. والمراد بصناعة اللبوس: صنعة الدروع ونسجها؛ والدليل على أن المراد باللبوس في الآية الدروع أنه أتبعه بقوله: ﴿لِنُحِصِّنَكُم مِّنْ بِأْسِكُمْ﴾؛ أي لتحرز وتقي بعضكم من بأس بعض؛ لأن الدرع تقيه ضرر الضرب بالسيف، والرمي بالرمح والسهم، كما هو معروف، وقد أوضح هذا المعنى بقوله: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ﴿٨١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيْغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ ﴿٨٢﴾ [سبأ: ١٠، ١١]،

فقوله: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَدِغَتٍ﴾؛ أي أن اصنع دروعاً سابغات من الحديد الذي ألناه لك، والسردي: نسج الدرع. ويقال فيه الزرد، ومن الأول قول أبي ذؤيب الهذلي: وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبع ومن الثاني قول الآخر:

نقريهم لهذميات نقد بها ما كان خايط عليهم كل زراد ومراده بالزراد: ناسج الدرع. وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾؛ أي اجعل الحلق والمسامير في نسجك للدرع بأقدار متناسبة؛ فلا تجعل المسمار دقيقاً لئلا ينكسر، ولا يشد بعض الحلق ببعض، ولا تجعله غليظاً غليظاً زائداً فيفصم الحلقة. وإذا عرفت أن اللبوس في الآية الدرود فاعلم أن العرب تطلق اللبوس على الدرود كما في الآية؛ ومنه قول الشاعر:

عليها أسود ضاويات لبوسهم سوابغ بيض لا يخرقها النبل
فقوله «سوابغ» أي درود سوابغ، وقول كعب بن زهير:

شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سراويل
ومراده باللبوس التي عبر عنها بالسراويل: الدرود. والعرب تطلق اللبوس أيضاً على جميع السلاح درعاً كان أو جوشناً أو سيفاً أو رمحاً، ومن إطلاقه على الرمح قول أبي كبير الهذلي يصف رمحاً:

ومعي لبوس للبييس كأنه روق بجبهة ذي نعاج مجفل
وتطلق اللبوس أيضاً على كل ما يلبس؛ ومنه قول بيهس:

البس كل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها
وما ذكره هنا من الامتنان على الخلق بتعليمه صنعة الدرود ليقبهم بها من بأس السلاح تقدم إيضاحه في سورة «النحل» في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَسَرَّيْلًا تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ﴾... الآية [النحل: ٨١].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾؛ الظاهر فيه أن صيغة الاستفهام هنا يراد بها الأمر، ومن إطلاق الاستفهام بمعنى الأمر في القرآن قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]؛ أي انتهوا؛ ولذا قال عمر رضي الله عنه: انتهينا يا رب. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةِينَ عَاسَمْتُمْ﴾ [آل عمران: ٢٠]؛ أي أسلموا، وقد تقرر في فن المعاني أن من المعاني التي تؤدي بصيغة الاستفهام: الأمر، كما ذكرنا.

وقوله: ﴿شَاكِرُونَ﴾ شكر العبد لربه، هو أن يستعين بنعمه على طاعته، وشكر الرب لعبده هو أن يشبه الثواب الجزيل من عمله القليل، ومادة «شكر» لا تتعدى غالباً إلا باللام، وتعديتها بنفسها دون اللام قليلة، ومنه قول أبي نخيلة:

شكرتك إن الشكر حبل من التقى وما كل من أوليته نعمة يقضى
وفي قوله: ﴿لِنُحْصِنَكُمْ﴾ ثلاث قراءات سبعية، قرأه عامة السبعة ما عدا ابن عامر
وعاصماً (ليحصنكم) بالياء المثناة التحتية، وعلى هذه القراءة فضمير الفاعل عائد إلى
داود، أو إلى اللبوس؛ لأن تذكيرها باعتبار معنى ما يلبس من الدروع جائز، وقرأه ابن
عامر وحفص عن عاصم ﴿لِنُحْصِنَكُمْ﴾ بالتاء المثناة الفوقية، وعلى هذه القراءة فضمير
الفاعل راجع إلى اللبوس وهي مؤنثة، أو إلى الصنعة المذكورة في قوله: ﴿صَنَعَةٌ
لَّبُوسٍ﴾، وقرأه شعبة عن عاصم (لنحصنكم) بالنون الدالة على العظمة، وعلى هذه
القراءة فالأمر واضح.

قوله تعالى: ﴿وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ
عَالِمِينَ﴾. قوله: ﴿وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ﴾ معطوف على معمول «سخرنا» في قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا
مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ﴾؛ أي وسخرنا لسليمان الريح في حال كونها عاصفة؛ أي شديدة الهبوب.
يقال عصفت الريح أي اشتدت، فهي ريح عاصف وعصوف، وفي لغة بني أسد (أعصفت)
فهي معصف ومعصفة، وقد قدمنا بعض شواهد العربية في سورة (الإسراء).

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي تطيعه وتجري إلى المحل الذي يأمرها به، وما ذكره في
هذه الآية من تسخير الريح لسليمان، وأنها تجري بأمره، بينه في غير هذا الموضع وزاد
بيان قدر سرعتها، وذلك في قوله: ﴿وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]،
وقوله: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

تنبيه: اعلم أن في هذه الآيات التي ذكرنا سؤالين معروفين:

الأول: أن يقال: إن الله وصف الريح المذكورة هنا في سورة «الأنبياء» بأنها
عاصفة؛ أي شديدة الهبوب، ووصفها في سورة «ص» بأنها تجري بأمره رخاء.
والعاصفة غير التي تجري رخاء.

والسؤال الثاني: هو أنه هنا في سورة «الأنبياء» خص جريها به بكونه إلى الأرض
التي بارك فيها للعالمين، وفي سورة «ص» قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]،
وقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، يدل على التعميم في الأمكنة التي يريد الذهاب إليها
على الريح، فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، أي حيث أراد؛ قاله مجاهد. وقال ابن
الأعرابي: العرب تقول: أصاب الصواب، وأخطأ الجواب؛ أي أراد الصواب وأخطأ
الجواب. ومنه قول الشاعر:

أصاب الكلام فلم يستطع فأخطأ الجواب لدى المفصل

قاله القرطبي. وعن رؤية أن رجلين من أهل اللغة تصداه ليسألاه عن معنى
«أصاب»؛ فخرج إليهما فقال: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا؛ ورجعا.

أما الجواب عن السؤال الأول فمن وجهين: الأول: أنها عاصفة في بعض

الأوقات، ولينة رخاء في بعضها بحسب الحاجة؛ كأن تعصف ويشند هبوبها في أول الأمر حتى ترفع البساط الذي عليه سليمان وجنوده، فإذا ارتفع سارت به رخاء حيث أصاب.

الجواب الثاني: هو ما ذكره الزمخشري قال: فإن قلت: وصفت هذه الريح بالعصف تارة وبالرخاء أخرى، فما التوفيق بينهما؟ قلت: كانت في نفسها رحية طيبة كالنسيم، فإذا مرت بكرسيه أبعدت به في مدة يسيرة، على ما قال: ﴿غُدُوهُا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]. فكان جمعها بين الأمرين: أن تكون رخاء في نفسها، وعاصفة في عملها مع طاعتها لسليمان، وهبوبها على حسب ما يريد ويحكم، اه محل الغرض منه.

وأما الجواب عن السؤال الثاني فهو أن قوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، يدل على أنها تجري بأمره حيث أراد من أقطار الأرض، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾؛ لأن مسكنه فيها وهي الشام، فترده إلى الشام. وعليه فقوله: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] في حالة الذهاب. وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾؛ في حالة الإياب إلى محل السكنى، فانفكت الجهة فزال الإشكال. وقد قال نابغة ذبيان:

إلا سليمان إذ قال الإله له قم في البرية فاحدها عن الفند
وخيس الجن إنني قد أذنت لهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد
وتدمر: بلد بالشام. وذلك مما يدل على أن الشام هو محل سكنه كما هو معروف.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يَغْوُصُونَ لَمْ يَعْمَلُوا عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ (٨٢). الأظهر في قوله: ﴿مَنْ يَغْوُصُونَ﴾ أنه في محل نصب عطفاً على معمول ﴿سَخَّرْنَا﴾ [ص: ١٨]؛ أي وسخرنا له من يغوصون له من الشياطين. وقيل: «من» مبتدأ، والجار والمجرور قبله خبره.

وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه سخر لسليمان من يغوصون له من الشياطين؛ أي يغوصون له في البحار فيستخرجون له منها الجواهر النفيسة؛ كاللؤلؤ، والمرجان. والغوص: النزول تحت الماء. والغواص: الذي يغوص البحر ليستخرج منه اللؤلؤ ونحوه، ومنه قول نابغة ذبيان:

أو درة صدفية غواصها بهج متى يرها يهل ويسجد
وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أيضاً أن الشياطين المسخرين له يعملون له عملاً دون ذلك؛ أي سوى ذلك الغوص المذكور؛ أي كبناء المدائن والقصور، وعمل المحاريب والتمائيل، والجفان والقذور الراسيات، وغير ذلك من اختراع الصنائع العجيبة.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾؛ أي من أن يزيغوا عن أمره، أو يبدلوا أو يغيروا، أو يوجد منهم فساد فيما هم مسخرون فيه، وهذه المسائل الثلاث

التي تضمنتها هذه الآية الكريمة جاءت مبينة في غير هذا الموضع، كقوله في الغوص والعمل سواء: ﴿وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ﴾ (٣٧) ... الآية [ص]، وقوله في العمل غير الغوص: ﴿وَمَنْ أَلْجَأَ مِنَ الْعَمَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [سبأ: ١٢]، وقوله: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرُوبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ [سبأ: ١٣]، وكقوله في حفظهم من أن يزيغوا عن أمره: ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبأ: ١٢]، وقوله: ﴿وَالْآخِرِينَ مُمْرِنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ (٢٨) [ص].

وصفة البساط، وصفة حمل الريح له، وصفة جنود سليمان من الجن والإنس والطير، كل ذلك مذكور بكثرة في كتب للتفسير، ونحن لم نطل به الكلام في هذا الكتاب المبارك.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ (٨٤)﴾. الظاهر أن قوله: ﴿وَأَيُّوبَ﴾ منصوب بـ«ذكر» مقدراً، ويدل على ذلك قوله تعالى في «ص»: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٨٤) [ص].

وقد أمر - جلّ وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين نبيه ﷺ أن يذكر أيوب حين نادى ربه قائلاً: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾؛ وأن ربه استجاب له فكشف عنه جميع ما به من الضر، وأنه آتاه أهله، وآتاه مثلهم معهم رحمة منه - جلّ وعلا - به، وتذكيراً للعابدين أي الذين يعبدون الله لأنهم هم المنتفعون بالذكرى.

وهذا المعنى الذي ذكر هنا ذكره أيضاً في سورة «ص» في قوله: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (٨٤)، إلى قوله: ﴿لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤١ - ٤٣]، والضر الذي مس أيوب، ونادى ربه ليكشفه عنه كان بلاء أصابه في بدنه وأهله وماله. ولما أراد الله إذهاب الضر عنه أمره أن يركض برجله ففعل، فنبعت له عين ماء فاغتسل منها فزال كل ما بظاهر بدنه من الضر، وشرب منها فزال كل ما بباطنه، كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ (٨٤) [ص].

وما ذكره في «الأنبياء» من أنه آتاه أهله ومثلهم معهم رحمة منه وذكرى لمن يعبد - بينه في «ص» في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٨٤) [ص]، وقوله في «الأنبياء» ﴿وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ﴾ مع قوله في «ص»: ﴿وَذَكَرْنَا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، فيه الدلالة الواضحة على أن أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال، هم الذين يعبدون الله وحده ويطيعونه. وهذا يؤيد قول من قال من أهل العلم: إن من أوصى بشيء من ماله لأعقل الناس أن تلك الوصية تصرف لأتقى الناس وأشدهم طاعة لله تعالى؛ لأنهم هم أولوا الأبواب؛ أي العقول الصحيحة السالمة من الاختلال.

تنبيه: في هذه الآيات المذكورة سؤال معروف، وهو أن يقال: إن قول أيوب

المذكور في «الأنبياء» في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾؛ وفي «ص» في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، يدل على أنه ضجر من المرض فشكا منه مع أن قوله تعالى عنه: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، يدل على كمال صبره؟

والجواب: أن ما صدر من أيوب دعاء وإظهار فقر وحاجة إلى ربه، لا شكوى ولا جزع.

قال أبو عبد الله القرطبي رحمته الله في تفسير هذه الآية الكريمة، ولم يكن قوله: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ جزعاً؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ بل كان ذلك دعاء منه. والجزع في الشكوى إلى الخلق لا إلا الله تعالى، والدعاء لا ينافي الرضا. قال الثعلبي: سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلساً غاصاً بالفقهاء والأدباء في دار السلطان؛ فسئلت عن هذه الآية الكريمة بعد اجتماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ فقلت: ليس هذا شكاية، وإنما كان دعاء بيانه ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾ والإجابة لتعقب الدعاء لا الاشتكاء. فاستحسنوه وارتضوه. وسئل الجنيد عن هذه الآية الكريمة فقال: عَرَفَهُ فَاقَةَ السُّؤَالِ لِيَمُنَّ عَلَيْهِ بِكَرَمِ النَّوَالِ، انتهى منه.

ودعاء أيوب المذكور ذكره الله في سورة «الأنبياء» من غير أن يسند مس الضر أيوب إلى الشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وذكره في سورة «ص» وأسند ذلك إلى الشيطان في قوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، والنصب على جميع القراءات معناه: التعب والمشقة، والعذاب: الألم. وفي نسبة ما أصابه من المشقة والألم إلى الشيطان في آية «ص» هذه إشكال قوي معروف؛ لأن الله ذكر في آيات من كتابه أن الشيطان ليس له سلطان على مثل أيوب من الأنبياء الكرام كقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُمْ عَلَى الَّذِينَ بَتَلَوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ عَلَيْهِمْ مِن سُلْطَانٍ... الآية [سبأ: ٢١]، وقوله تعالى عنه مقررأ له: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر].

وللعلماء عن هذا الإشكال أجوبة، منها ما ذكره الزمخشري قال:

فإن قلت: لم نسبة إلى الشيطان، ولا يجوز أن يسلمه على أنبيائه ليقضي من إعتابهم وتعذيبهم وطره، ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب؟

قلت: لما كانت وسوسته إليه، وطاعته له فيما وسوس سبباً فيما مسه الله به من

النصب والعذاب نسبه إليه، وقد راعى الأدب في ذلك حيث لم ينسبه إلى الله في دعائه، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو، وقيل: أراد ما كان يوسوس به إليه في مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء، ويغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إلى الله تعالى في أن يكفيه ذلك بكشف البلاء، أو بالتوفيق في دفعه ورده بالصبر الجميل.

وروى أنه كان يعود ثلاثه من المؤمنين، فارتد أحدهم فسأل عنه، فقيل: ألقى إليه الشيطان أن الله لا يبتلي الأنبياء الصالحين. وذكر في سبب بلائه أن رجلاً استغاثه على ظالم فلم يغثه. وقيل: كانت مواشيه في ناحية ملك كافر فداهنه ولم يغزه. وقيل: أعجب بكثرة ماله، انتهى منه.

ومنها ما ذكره جماعة من المفسرين أن الله سلط الشيطان على ماله وأهله ابتلاءً لأيوب؛ فأهلك الشيطان ماله وولده، ثم سلطه على بدنه ابتلاءً له فنخخ في جسده نفخة اشتعل منها، فصار في جسده ثآليل، فحكها بأظافره حتى دميت، ثم بالفخار حتى تساقط لحمه، وعصم الله قلبه ولسانه (وغالب ذلك من الإسرائيليات) وتسليطه للابتلاء على جسده وماله وأهله ممكن، وهو أقرب من تسليطه عليه بحمله على أن يفعل ما لا ينبغي؛ كمداهنة الملك المذكور، وعدم إغاثة الملهوف، إلى غير ذلك من الأشياء التي يذكرها المفسرون. وقد ذكروا هنا قصة طويلة تتضمن البلاء الذي وقع فيه، وقدر مدته (وكل ذلك من الإسرائيليات) وقد ذكرنا هنا قليلاً.

وغاية ما دل عليه القرآن أن الله ابتلى نبيه أيوب - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - وأنه ناداه فاستجاب له وكشف عنه كل ضرر، ووهبه أهله ومثلهم معهم، وأن أيوب نسب ذلك في «ص» إلى الشيطان. ويمكن أن يكون سلطه الله على جسده وماله وأهله؛ ابتلاءً ليظهر صبره الجميل، وتكون له العافية الحميدة في الدنيا والآخرة، ويرجع له كل ما أصيب فيه، والعلم عند الله تعالى، وهذا لا ينافي أن الشيطان لا سلطان له على مثل أيوب؛ لأن التسليط على الأهل والمال والجسد من جنس الأسباب التي تنشأ عنها الأعراض البشرية كالمرض، وذلك يقع للأنبياء؛ فإنهم يصيبهم المرض، وموت الأهل، وهلاك المال لأسباب متنوعة. ولا مانع من أن يكون جملة تلك الأسباب تسليط الشيطان على ذلك للابتلاء، وقد أوضحنا جواز وقوع الأمراض والتأثيرات البشرية على الأنبياء في سورة «طه» وقول الله لنبيه أيوب في سورة «ص»: ﴿وَحُدِّ بِيدِكَ ضَعْفًا فَأُضْرَبَ بِهِ وَلَا تَحْتَسِبْ﴾ [ص: ٤٤]، قال المفسرون فيه: إنه حلف في مرضه ليضربن زوجته مائة سوط، فأمره الله أن يأخذ ضعفًا فيضربها به ليخرج من يمينه، والضغث: الحزمة الصغيرة من حشيش أو ريحان أو نحو ذلك. والمعنى أنه يأخذ حزمة فيها مائة عود فيضربها بها ضربة واحدة، فيخرج بذلك من يمينه. وقد قدمنا في سورة «الكهف» الاستدلال بآية: ﴿وَلَا تَحْتَسِبْ﴾ [ص: ٤٤]، على أن الاستثناء المتأخر لا يفيد، إذ لو كان يفيد لقال الله لأيوب قل - إن شاء الله - ليكون ذلك استثناءً في يمينك.

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكَاذَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمْرِ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾. أي واذكر ذا النون. والنون: الحوت. «وذا» بمعنى صاحب. فقوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾ معناه صاحب الحوت؛ كما صرح الله بذلك في «القلم» في قوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾. . . الآية [القلم: ٤٨]. وإنما أضافه إلى الحوت؛ لأنه التقمه كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٦﴾﴾ [الصفات].

وقوله: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ فيه وجهان من التفسير لا يكذب أحدهما الآخر:

الأول: أن المعنى: ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾؛ أي لن نضيق عليه في بطن الحوت. ومن إطلاق «قدر» بمعنى «ضيق» في القرآن قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، أي ويضيق الرزق علي من يشاء، وقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾. . . الآية [الطلاق: ٧]. فقوله: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي ومن ضيق عليه رزقه.

الوجه الثاني: أن معنى ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ لن نقضي عليه ذلك. وعليه فهو من القدر والقضاء، «وقدر» بالتخفيف تأتي بمعنى «قدر» المضعفة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢]، أي قدره الله. ومنه قول الشاعر وأنشده ثعلب شاهداً لذلك:

فليست عشيات الحمى برواجع لنا أبداً ما أورق السلم النصر
ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يقع ولك الشكر

والعرب تقول: قدر الله لك الخير يقدره قادراً، كضرب يضرب، ونصر ينصر، بمعنى قدره لك تقديراً؛ ومنه على أصح القولين «ليلة القدر»؛ لأن الله يقدر فيها الأشياء؛ كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿١﴾﴾ [الدخان]، والقدر بالفتح، والقدر بالسكون: ما يقدره الله من القضاء، ومنه قول هذبة بن الخشم:

ألا يا لقومي للنوائب والقدر وللأمر يأتي المرء من حيث لا يدري

أما قول من قال: إن ﴿لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ من القدرة - فهو قول باطل بلا شك؛ لأن نبي الله يونس لا يشك في قدرة الله على كل شيء، كما لا يخفى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿مُغْتَضِبًا﴾ أي في حال كونه مغاضباً لقومه، ومعنى المفاعلة فيه أنه أغضبهم بمفارقته وتخوفهم حلول العذاب بهم، وأغضبوه حين دعاهم إلى الله مدة فلم يجيبوه، فأوعدهم بالعذاب. ثم خرج من بينهم على عادة الأنبياء عند نزول العذاب قبل أن يأذن الله له في الخروج؛ قاله أبو حيان في البحر. وقال أيضاً: وقيل معنى ﴿مُغْتَضِبًا﴾ غضبان، وهو من المفاعلة التي لا تقتضي اشتراكاً؛ نحو عاقبت اللص، وسافرت، اهـ.

واعلم أن قول من قال: ﴿مُغْتَضِبًا﴾؛ أي مغاضباً لربه كما روي عن ابن مسعود،

وبه قال الحسن والشعبي وسعيد بن جبير، واختاره الطبري والقتيبي، واستحسنه المهدي
يجب حمله على معنى القول الأول؛ أي مغاضباً من أجل ربه. قال القرطبي بعد أن ذكر
هذا القول عمن ذكرنا؛ وقال النحاس: وربما أنكروا هذا من لا يعرف اللغة، وهو قول
صحيح، والمعنى: مغاضباً من أجل ربه كما تقول: غضبت لك أي من أجلك.
والمؤمن يغضب لله ﷻ، إذا عصي، انتهى منه. والمعنى على ما ذكر: مغاضباً قومه من
أجل ربه، أي من أجل كفرهم به، وعصيانهم له، وغير هذا لا يصح في الآية.

وقوله تعالى: ﴿فَكَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾؛ أي ظلمة البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن
الحوت. «وأن» في قوله: ﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ مفسرة، وقد أوضحنا فيما تقدم معنى
«أن لا إله»، ومعنى «سبحانك»، ومعنى الظلم، فأعنى ذلك عن إعادته هنا.

وقوله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾؛ أي أجيبناه ونجينا من الغم الذي هو فيه في بطن الحوت،
وإطلاق استجاب بمعنى أجاب معروف في اللغة، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى فلم يستجبه عند ذاك مجيب

وما ذكره الله - جلّ وعلا - في هذه الآية من نداء نبيه يونس في تلك الظلمات،
هذا النداء العظيم، وأن الله استجاب له ونجاه من الغم أوضحه في غير هذا الموضوع.

وبين في بعض المواضع أنه لو لم يسبح هذا التسبيح العظيم للبث في بطن
الحوت إلى يوم البعث ولم يخرج منه. وبين في بعضها أنه طرحه بالعراء وهو سقيم.

وبين في بعضها أنه خرج بغير إذن كخروج العبد الآبق، وأنهم اقترعوا على من
يلقى في البحر فوقع القرعة على يونس أنه هو الذي يلقي فيه.

وبين في بعضها أن الله تداركه برحمته؛ ولو لم يتداركه بها لنبذ بالعراء في حال
كونه مذموماً، ولكنه تداركه بها فنبذ غير مذموم، قال تعالى في «الصفات»: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٤٢﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِ الْمَشْحُونِ ﴿٤٣﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿٤٤﴾ فَالْقَمَةُ لُحُوتٌ
وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٥﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿٤٦﴾ لَلِئْتِ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٧﴾ فَبَدَّدَهُ
بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿٤٨﴾ وَأَبَلَّتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿٤٩﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَبَدُونِ
﴿٥٠﴾ فَفَأَمَّا فِتْنَتُهُمْ إِلَىٰ حِينِ ﴿٥١﴾ [الصفات]. فقوله في آيات «الصفات» المذكورة: ﴿إِذْ
أَبَقَ﴾ أي حين أبق، وهو من قول العرب: عبد أبق؛ لأن يونس خرج قبل أن يأذن له
ربه؛ ولذلك أطلق عليه اسم الإباق. واستحقاق الملامة في قوله: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾
[الذاريات: ٤٠] لأن المليم اسم فاعل ألام إذا فعل ما يستوجب الملام. وقوله:
﴿فَسَاهَمَ﴾ أي قارع بمعنى أنه وضع مع أصحاب السفينة سهام القرعة ليخرج سهم من
يلقى في البحر. وقوله: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي المغلوبين في القرعة؛ لأنه خرج له
السهم الذي يلقي صاحبه في البحر. ومن ذلك قول الشاعر:

قتلنا المدحضين بكل فج فقد قرت بقتلهم العيون

وقوله: ﴿فَبَدَّنْهُ﴾ أي طرحناه، بأن أمرنا الحوت أن يلقيه بالساحل، والعراء: الصحراء. وقول من قال: العراء؛ الفضاء أو المتسع من الأرض، أو المكان الخالي أو وجه الأرض، راجع إلى ذلك، ومنه قول الشاعر وهو رجل من خزاعة:

ورفعت رجلاً لا أخاف عثارها
ونبذت بالبلد العراء ثيابي

وشجرة اليقطين: هي الدباء. وقوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ أي مريض لما أصابه من التقام الحوت إياه. وقال تعالى في «القلم»: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْمُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ تَوَلَّىٰ أَنْ تَدْرِكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لِيَدَّ بِالْعُرَىٰ وَهُوَ مَدْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَأَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَجَعَلَ مِنِ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم]، فقوله في آية «القلم» هذه: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ أي نادى أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وقوله: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي مملوء غمًا، كما قال تعالى: ﴿وَجَبَّ نَفْسُهُ مِّنَ الْغَمِّ﴾؛ وهو قول ابن عباس ومجاهد. وعن عطاء وأبي مالك ﴿مَكْظُومٌ﴾: مملوء كرباً. قال الماوردي: والفرق بين الغم والكرب: أن الغم في القلب. والكرب في الأنفاس. وقيل: ﴿مَكْظُومٌ﴾ محبوس. والكظم: الحبس؛ ومنه قولهم: كظم غيظه، أي حبس غضبه، قاله ابن بحر. وقيل: المكظوم المأخوذ بكظمه، وهو مجرى النفس، قاله المبرد، انتهى من القرطبي.

وآية «القلم» المذكورة تدل على أن نبي الله يونس - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - عجل بالذهاب ومغاضبة قومه، ولم يصبر الصبر اللازم بدليل قوله مخاطباً نبينا ﷺ فيها: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَالِحِ الْمُوتِ﴾ [القلم: ٤٨]. فإن أمره لنبينا ﷺ بالصبر ونهيه إياه أن يكون كصاحب الحوت دليل على أن صاحب الحوت لم يصبر كما ينبغي. وقصة يونس، وسبب ذهابه ومغاضبته قومه مشهورة مذكورة في كتب التفسير، وقد بين تعالى في سورة «يونس» أن قوم يونس آمنوا فنفعهم إيمانهم دون غيرهم من سائر القرى التي بعثت إليهم الرسل، وذلك في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَآدَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يدل على أنه ما من مؤمن يصيبه الكرب والغم فيبتهل إلى الله داعياً بإخلاص، إلا نجاه الله من ذلك الغم، ولا سيما إذا دعا بدعاء يونس هذا، وقد جاء في حديث مرفوع عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن النبي ﷺ قال في دعاء يونس المذكور: «لم يدع به مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له» رواه أحمد والترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير وغيرهم، والآية الكريمة شاهدة لهذا الحديث شهادة قوية كما ترى؛ لأنه لما ذكر أنه أنجى يونس شبه بذلك إنجاء المؤمنين. وقوله: ﴿نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ صيغة عامة في كل مؤمن كما ترى، وقرأ عامة القراء السبعة غير ابن عامر وشعبة عن عاصم ﴿وَكَذَٰلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ بنونين أو لهما مضمومة، والثانية ساكنة بعدها جيم مكسورة مخففة فياء ساكنة، وهو

مضارع أنجى الرباعي على صيغة أفعل، والنون الأولى دالة على العظمة، وقرأ ابن عامر وشعبة عن عاصم: (وكذلك نُنجي المؤمنين) بنون واحدة مضمومة بعدها جيم مكسورة مشددة فياء ساكنة. وهو على هذه القراءة بصيغة فعل ماض مبني للمفعول من نجى المضعفة على وزن فعل بالتضعيف. وفي كلتا القراءتين إشكال معروف، أما قراءة الجمهور فهي من جهة القواعد العربية واضحة لا إشكال فيها، ولكن فيها إشكال من جهة أخرى، وهي: أن هذا الحرف إنما كتبه الصحابة في المصاحف العثمانية بنون واحدة، فيقال: كيف تقرأ بنونين وهي في المصاحف بنون واحدة؟ وأما على قراءة ابن عامر وشعبة فالإشكال من جهة القواعد العربية؛ لأن نجى على قراءتهما بصيغة ماض مبني للمفعول، فالقياس رفع ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعده على أنه نائب الفاعل، وكذلك القياس فتح ياء «نجى» لا إسكانها.

وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة، منها ما ذكره بعض الأئمة، وأشار إليه ابن هشام في باب الإدغام من توضيحه: أن الأصل في قراءة ابن عامر وشعبة «ننجي» بفتح النون الثانية مضارع نجى مضعفاً، فحذفت النون الثانية تخفيفاً. أو «ننجي» بسكونها مضارع أنجى وأدغمت النون في الجيم لاشتراكهما في الجهر والانفتاح والتوسط بين القوة والضعف، كما أدغمت في «إجاصة وإجانة» بتشديد الجيم فيهما، والأصل «إنجاصة وإنجانة» فأدغمت النون فيهما. والإجاصة: واحدة الإجاص، قال في القاموس: الإجاص بالكسر مشدداً؛ ثمر معروف دخيل؛ لأن الجيم والصاد لا يجتمعان في كلمة، الواحدة بهاء. ولا تقل إنجاص، أو لغية، اهـ. والإجانة. واحدة الأجاجين. قال في التصريح: وهي بفتح الهمزة وكسرها. قال صاحب الفصيح: قصرية يعجن فيها ويغسل فيها. ويقال: إنجانة كما يقال إنجاصة، وهي لغة يمانية فيهما أنكرها الأكثرون اهـ، فهذان وجهان في توجيه قراءة ابن عامر وشعبة، وعليهما فلفظة «المؤمنين» مفعول به «ننجي».

ومن أجوبة العلماء عن قراءة ابن عامر وشعبة أن «نجي» على قراءتهما فعل ماض مبني للمفعول، والنائب عن الفاعل ضمير المصدر، أي نجى هو أي الإنجاء، وعلى هذا الوجه فالآية كقراءة من قرأ: (لِيُجْزَى قوماً) . . . الآية، ببناء «يجزى» للمفعول والنائب ضمير المصدر، أي ليجزى هو أي الجزاء، ونيابة المصدر عن الفاعل في حال كون الفعل متعدياً للمفعول ترد بقلته، كما أشار له في الخلاصة بقوله:

وقابل من ظرف أو من مصدر أو حرف جر بنيابة حري

ولا ينوب بعض هذا إن وجد في اللفظ مفعول به وقد يرد

ومحل الشاهد منه قوله: «وقد يرد». وممن قال بجواز ذلك الأخفش والكوفيون

وأبو عبيد. ومن أمثلة ذلك في كلام العرب قول جرير يهجو أم الفرزدق:

ولو ولدت قفيرة جرو كلب لسب بذلك الجرو الكلابا
يعني لسب هو أي السب. وقول الراجز:

لم يعن بالعلياء إلا سيداً ولا شفى ذا الغي إلا ذو هدى
وأما إسكان ياء «نجي» على هذا القول فهو على لغة من يقول من العرب: رضى،
وبقى بإسكان الياء تخفيفاً. ومنه قراءة الحسن (وذروا ما بقي من الربا) بإسكان ياء
«بقي»، ومن شواهد تلك اللغة قول الشاعر:

خمر الشيب لمتى تخميرا وحدا بي إلى القبور البعيرا
ليت شعري إذا القيامة قامت ودعي بالحساب أين المصيرا

وأما الجواب عن قراءة الجمهور، فالظاهر فيه أن الصحابة حذفوا النون في
المصاحف لتمكن موافقة قراءة ابن عامر وشعبة المصاحف لخفائها. أما قراءة الجمهور
فوجهها ظاهر ولا إشكال فيها، فغاية الأمر أنهم حذفوا حرفاً من الكلمة لمصلحة مع
تواتر الرواية لفظاً بذكر الحرف المحذوف والعلم عند الله تعالى.

**قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا
أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَلِّئِنَّآ رَجِعُونَ﴾ (٩٣).**

قد قدمنا معاني «الأمة» في القرآن في سورة «هود»، والمراد بالأمة هنا: الشريعة
والملة. والمعنى وأن هذه شريعتكم شريعة واحدة، وهي توحيد الله على الوجه الأكمل
من جميع الجهات، وامثال أمره، واجتناب نهيه بإخلاص في ذلك على حسب ما
شرعه لخلقه ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾؛ أي وحدي، والمعنى دينكم واحد وربكم
واحد، فلم تختلفون ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾؛ أي تفرقوا في الدين وكانوا شيعاً؛
فمنهم يهودي، ومنهم نصراني، ومنهم عابد وثن، إلى غير ذلك من الفرق المختلفة.

ثم بين بقوله: ﴿كَلِّئِنَّآ رَجِعُونَ﴾؛ أنهم جميعهم راجعون إليه يوم القيامة،
وسيجازيهم بما فعلوا. وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ
بَيْنَهُمْ﴾؛ المعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما يتوزع الجماعة الشيء ويقتسمونه؛
فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب؛ تمثيلاً لاختلافهم فيه، وصيرورتهم فرقاً شتى، اهـ.

وظاهر الآية أن «تقطع» متعدية إلى المفعول ومفعولها ﴿أَمْرَهُمْ﴾ ومعنى تقطعوه
أنهم جعلوه قطعاً كما ذكرنا. وقال القرطبي: قال الأزهري: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي
تفرقوا في أمرهم، فنصب «أمرهم» بحذف «في». ومن إطلاق الأمة بمعنى الشريعة
والدين كما في هذه الآية: قوله تعالى في الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾
[الزخرف: ٢٢]، أي على شريعة وملة ودين. ومن ذلك قول نابغة ذبيان:

حلفت فلم أترك في نفسك ريبة وهل يأتمن ذو أمة وهو طائع

ومعنى قوله: «وهل يأتمن ذو أمة... إلخ» أن صاحب الدين لا يرتكب الإثم طائعاً.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هاتين الآيتين الكريميتين من أن الدين واحد والرب واحد فلا داعي للاختلاف، وأنهم مع ذلك اختلفوا وصاروا فرقاً أوضحه في سورة «قد أفلح المؤمنون»، وزاد أن كل حزب من الأحزاب المختلفة فرحون بما عندهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله في هذه الآية: ﴿زُبُرًا﴾ أي قطعاً كزبر الحديد والفضة، أي قطعها. وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، أي كل فرقة من هؤلاء الفرق الضالين المختلفين المتقطعين دينهم قطعاً فرحون بباطلهم، مطمئنون إليه، معتقدون أنه هو الحق.

وقد بين - جلّ وعلا - في غير هذا الموضع أن ما فرحوا به، واطمأنوا إليه باطل، كما قال تعالى في سورة «المؤمن»: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [غافر]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَّعُوا بِهِمُ وَكَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأنعام].

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ هَذِهِ﴾ «هذه» اسم «إن» وخبرها ﴿أُمَّتُكُمْ﴾. وقوله: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ حال كما هو ظاهر.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل النار لهم فيها زفير والعياذ بالله تعالى، وأظهر الأقوال في الزفير: أنه كأول صوت الحمار، وأن الشهيق كآخره، وقد بين تعالى أن أهل النار لهم فيها زفير في غير هذا الموضع وزاد على ذلك الشهيق والخلود كقوله في «هود»: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧].

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أهل النار لا يسمعون فيها. وبين في غير هذا الموضع أنهم لا يتكلمون ولا يبصرون، كقوله في «الإسراء»: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَرَبَّمَا وَصُمًّا﴾... الآية [الإسراء: ٩٧]، وقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَظْفِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النمل]، مع أنه - جلّ وعلا - ذكر في آيات أخر ما يدل على أنهم يسمعون ويبصرون ويتكلمون، كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾... الآية [مريم: ٣٨]، وقوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾... الآية [السجدة: ١٢]، وقوله: ﴿وَرَدَّ الْمَجْرُمُونَ أَتَّارًا﴾... الآية [الكهف: ٥٣]. وقد بينا أوجه الجمع بين الآيات المذكورة في «طه» فأغنى ذلك عن إعادته هنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾. ذكر

- جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن الذين سبق لهم منه في علمه الحسنى وهي تأنيث الأحسن، وهي الجنة أو السعادة مبعدون يوم القيامة عن النار؛ وقد أشار إلى نحو ذلك في غير هذا الموضع كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿١٠١﴾﴾ [الرحمن]، ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنُنَلِّقَهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾. ذكر

- جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أن عباده المؤمنين الذين سبق لهم منه الحسنى ﴿وَنُنَلِّقَهُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾؛ أي تستقبلهم بالبشارة، وتقول لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ أي توعدون فيه أنواع الكرامة والنعيم، قيل: تستقبلهم على أبواب الجنة بذلك. وقيل: عند الخروج من القبور كما تقدم.

وما ذكره - جلّ وعلا - من استقبال الملائكة لهم بذلك - بينه في غير هذا

الموضع كقوله في «فصلت»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ مَعُنْ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهَىٰ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ نَزَّلَا مِن عَفْوَرٍ رَّحِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت]، وقوله في «النحل»: ﴿الَّذِينَ نُوَفِّئُهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا فَاذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [النحل] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ منصوب بقوله: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ﴾، أو بقوله:

﴿وَنُنَلِّقَهُمُ﴾. وقد ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يوم القيامة يطوي السماء كطي السجل للكتب. وصرح في «الزمر» بأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، وأن السموات مطويات بيمينه، وذلك في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَعَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزمر]. وما ذكره من كون السموات مطويات بيمينه في هذه الآية جاء في الصحيح أيضاً عن النبي ﷺ، وقد قدمنا مراراً أن الواجب في ذلك إمراره كما جاء، والتصديق به مع اعتقاد أن صفة الخالق أعظم من أن تماثل صفة المخلوق. وأقوال العلماء في معنى قوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ راجعة إلى أمرين:

الأول: أن السجل الصحيفة: والمراد بالكتب: ما كتب فيها، واللام بمعنى على،

أي كطي السجل على الكتب، أي كطي الصحيفة على ما كتب فيها، وعلى هذا فطي السجل مصدر مضاف إلى مفعوله؛ لأن السجل على هذا المعنى مفعول الطي.

الثاني: أن السجل ملك من الملائكة، وهو الذي يطوي كتب أعمال بني آدم إذا

رفعت إليه، ويقال: إنه في السماء الثالثة، ترفع إليه الحفظة الموكلون بالخلق أعمال بني

آدم في كل خميس واثنين، وكان من أعوانه (فيما ذكروا) هاروت وماروت، وقيل: إنه لا يطوي الصحيفة حتى يموت صاحبها فيرفعها ويطويها إلى يوم القيامة، وقول من قال: إن السجل صحابي، كاتب للنبي ﷺ ظاهر السقوط كما ترى.

وقوله في هذه الآية الكريمة: «للكتاب» قرأه عامة السبعة غير حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «للكتاب» بكسر الكاف وفتح التاء بعدها ألف بصيغة الإفراد. وقرأه حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (للكتُب) بضم الكاف والتاء بصيغة الجمع. ومعنى القراءتين واحد؛ لأن المراد بالكتاب على قراءة الإفراد جنس الكتاب، فيشمل كل الكتب.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (١٠٥)، أظهر الأقوال عندي في هذه الآية الكريمة أن الزبور الذي هو الكتاب يراد به جنس الكتاب فيشمل الكتب المنزلة، كالتوراة والإنجيل، وزبور داود، وغير ذلك، وأن المراد بالذكر أم الكتاب، وعليه فالمعنى ولقد كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء أن الأرض يرثها عبادي الصالحون بعد أن كتبنا ذلك في أم الكتاب. وهذا المعنى واضح لا إشكال فيه. وقيل الزبور في الآية: زبور داود، والذكر: التوراة، وقيل غير ذلك. وأظهرها هو ما ذكرنا واختاره غير واحد.

واعلم أنا قد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية قد يكون فيها قولان للعلماء، وكلاهما حق ويشهد له قرآن فنذكر الجميع؛ لأنه كله حق داخل في الآية. ومن ذلك هذه الآية الكريمة؛ لأن المراد بالأرض في قوله هنا: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾؛ فيه للعلماء وجهان:

الأول: أنها أرض الجنة يورثها الله يوم القيامة عباده الصالحين، وهذا القول يدل له قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ (٧٤) [الزمر]، وقد قدمنا معنى إيراثهم الجنة مستوفى في سورة «مريم».

الثاني: أن المراد بالأرض أرض العدو يورثها الله المؤمنين في الدنيا؛ ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهُا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (١٧) [الأحزاب]، وقوله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا﴾... الآية [الأعراف: ١٣٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَغْنُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١٨) [الأعراف]، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾... الآية [النور: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ (١٤) [إبراهيم: ١٣]، إلى غير ذلك من الآيات، وقرأ هذا الحرف عامة القراء غير حمزة ﴿فِي الزُّبُورِ﴾ بفتح الزاي ومعناه الكتاب. وقرأ حمزة وحده (في الزبور) بضم الزاي. قال القرطبي: وعلى قراءة حمزة

فهو جمع زبر، والظاهر أنه يريد الزبر بالكسر بمعنى المزبور أي المكتوب. وعليه
فمعنى قراءة حمزة: ولقد كتبنا في الكتب. وهي تؤيد أن المراد بالزبور على قراءة الفتح
جنس الكتب لا خصوص زبور داود كما بينا. وقرأ حمزة أيضاً «يرثها عبادي» بإسكان
الياء. والباقون بفتحها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰكِدِيْنَ﴾ ﴿١٠٦﴾.

الإشارة في قوله: ﴿هَذَا﴾ للقرآن العظيم، الذي منه هذه السورة الكريمة،
والبلاغ: الكفاية، وما تبلغ به البغية. وما ذكره هنا من أن هذا القرآن فيه الكفاية
للعابدين، وما يبلغون به بغيتهم، أي من خير الدنيا والآخرة، ذكره في غير هذا الموضع
كقوله: ﴿هَذَا بَلٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوْا بِهِمْ وَيَعْلَمُوْا اَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَكِّرَ اُولُوْا الْاَلْبٰبِ﴾ ﴿٥٧﴾
[إبراهيم] وخص القوم العابدين بذلك لأنهم هم المنتفعون به.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾ ﴿١٠٧﴾. ذكر - جلّ وعلا - في هذه

الآية الكريمة أنه ما أرسل هذا النبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الخلائق
إلا رحمة لهم؛ لأنه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والآخرة إن
اتبعوه. ومن خالف ولم يتبع فهو الذي ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى.
وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً قال: لو فجر الله عيناً للخلق غزيرة الماء، سهلة
التناول؛ فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها. فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي
أناس مفروطون كسالى عن العمل؛ فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في
نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما
ينفعها. ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ
الْبُورِ﴾ ﴿٢٨﴾ [إبراهيم]. وقيل: كونه رحمة للكفار من حيث إن عقوبتهم أخرجت بسببه،
وأمنوا به عذاب الاستئصال، والأول أظهر.

وما ذكره - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة من أنه ما أرسله إلا رحمة للعاملين،
يدل على أنه جاء بالرحمة للخلق فيما تضمنه هذا القرآن العظيم. وهذا المعنى جاء
موضحاً في مواضع من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِيْهِمْ اَنَّا اَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتٰبَ
يَتْلٰى عَلَيْهِمْ اِنَّ فِيْ ذٰلِكَ لَرَحْمَةً وَّذِكْرًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُوْنَ﴾ ﴿٥١﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿وَمَا
كُنْتَ تَرْجُوْا اَنْ يُلْقٰى اَيْتٰكُ الْكِتٰبُ اِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦].

وقد قدمنا الآيات الدالة على ذلك في سورة «الكهف» في موضعين منها، وفي
صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين.
قال: «إني لم أبعث لعاناً وإنما بعثت رحمة».

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾. قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا
وصدوا عما تدعوهم إليه ﴿فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾؛ أي أعلمتكم أنني حرب لكم كما

أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية أشارت إليه آيات أخر، كقوله: ﴿وَلِمَا تَخَافَتَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي ليكن علمك وعلمهم بنبذ العهود على السواء. وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس].

وقوله: ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾ [الأذان: الإعلام؛ ومنه الأذان للصلاة. وقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾... الآية [التوبة: ٣]، أي إعلام منه، قوله: ﴿فَأَذَانُ يَحْرِبُ مِنَ اللَّهِ﴾... الآية [البقرة: ٢٧٩]، أي أعلموا. ومنه قول الحرث بن حنظلة:

أذنتنا ببينها أسماء رب ثاوٍ يمل منه الشواء

يعني أعلمتنا بينها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم ما يجهر به خلقه من القول، ويعلم ما يكتُمونه. وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]، في الموضوعين، وقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ فَنَسُوهُ وَخَنَّا أَعْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق]، وقوله: ﴿وَلَنْ يَجْهَرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْمُرْ بِالْحَقِّ﴾. قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حفص عن عاصم (قُل ربي) بضم القاف واللام بصيغة الأمر، وقرأه حفص وحده ﴿قَالَ﴾ بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الماضي، وقراءة الجمهور تدل على أنه ﷺ أمر أن يقول ذلك. وقراءة حفص تدل على أنه امتثل الأمر بالفعل. وما أمره أن يقوله هنا قاله نبي الله شعيب كما ذكره الله عنه في قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقوله: ﴿افْتَحْ﴾ أي احكم كما تقدم.

وقوله: ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ﴾؛ أي تصفونه بالسنتكم من أنواع الكذب بادعاء الشركاء والأولاد وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَصِفُ أَلْسِنَتَهُمُ الْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ٦٢]، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]. وما قاله النبي ﷺ في هذه الآية قاله يعقوب لما علم أن أولاده فعلوا بأخيهم يوسف شيئاً غير ما أخبروه به؛ وذلك في قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، والمستعان: المطلوب منه العون، والعلم عند الله تعالى.

أنكم حرب لي، بريء منكم كما أنتم برآء مني. وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية أشارت إليه آيات أخر، كقوله: ﴿وَلِمَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، أي ليكن علمك وعلمهم بنبد العهود على السواء. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [يونس].

وقوله: ﴿ءَاذَنْتُكُمْ﴾ [الأذان: الإعلام؛ ومنه الأذان للصلاة. وقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ... الآية [التوبة: ٣]، أي إعلام منه، قوله: ﴿فَأَذْنُوا يَحْرِبِ مِنَ اللَّهِ... الآية [البقرة: ٢٧٩]، أي أعلموا. ومنه قول الحرث بن حلزة:

أذنتنا ببينها أسماء رب ثاوي يمل منه الثواء
يعني أعلمتنا ببينها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١١﴾﴾.

ذكر - جلّ وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم ما يجهر به خلقه من القول، ويعلم ما يكتُمونه. وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَسْرَأُ قَوْلَكُمُ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ﴾ [إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾] [الملك]، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [المائدة: ٩٩]، في الموضوعين، وقوله: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ فَنَسُوهُ وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق]، وقوله: ﴿وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾ [طه] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾. قرأ هذا الحرف عامة القراء السبعة غير حفص عن عاصم (قل ربي) بضم القاف وسكون اللام بصيغة الأمر، وقرأه حفص وحده ﴿قَالَ﴾ بفتح القاف واللام بينهما ألف بصيغة الماضي، وقراءة الجمهور تدل على أنه ﷺ أمر أن يقول ذلك. وقراءة حفص تدل على أنه امتثل الأمر بالفعل. وما أمره أن يقوله هنا قاله نبي الله شعيب كما ذكره الله عنه في قوله: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقوله: ﴿أَفْتَحْ﴾ أي احكم كما تقدم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ﴾؛ أي تصفونه بالسنتكم من أنواع الكذب بادعاء الشركاء والأولاد وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَصِفُ أَلْسِنَهُمُ الْكَذِبَ﴾ الآية [النحل: ٦٢]، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا نَصِفُ أَلْسِنَتِكُمْ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]. وما قاله النبي ﷺ في هذه الآية قاله يعقوب لما علم أن أولاده فعلوا بأخيهم يوسف شيئاً غير ما أخبروه به؛ وذلك في قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا نَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، والمستعان: المطلوب منه العون، والعلم عند الله تعالى.